تعَالَ وَانظُرْ

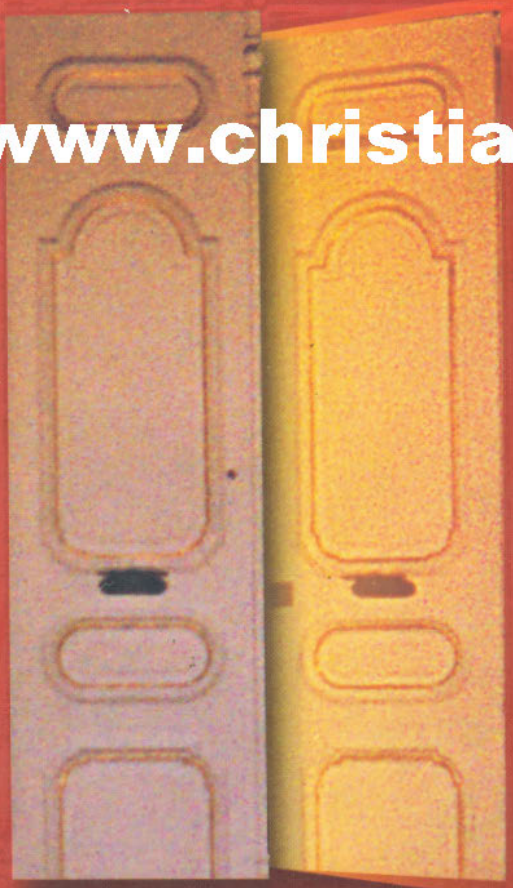

www.christianlib.com

جُورج ن. نحّاس

تعاونية النور الأرثوذكسية للنشر والتوزيع م.م.

تعاونية النور الأرثوذكسية للنشر والتوزيع م.م.

©جميع الحقوق محفوظة، بيروت ٢٠٠١

تعَالَ وَانظُرْ

جُورج ن. نحّاس

تعاونية النور الأرثوذكسية للنشر والتوزيع م.م.

إهداء

" أخذوا سيّدي ولا أعرف أين وضعوه" (يوحنّا ٢٠:١٣).

" أَنْهَضُ وأَطوفُ في المدينةِ، في الشوارعِ وفي السّاحاتِ أَلْتَمِسُ من تُحِبُّه نَفْسي" (نشيد الأنشاد ٣:٢).

أُهْدي هذا الكتاب لكلّ من يُفَتّش بحرارةٍ عن بَهاءِ وجهِ الكنيسة في هذا العالم، لأنه عَشِق سيّدَها.

فصح سنة ٢٠٠٠

مقدّمة

عنوان هذا الكتاب مأخوذ من الإنجيل: "تعال وانظر" (يوحنّا ١:٤٦). هذه دعوة أطلقها فيليبس لنثنائيل حتى يرى هذا الأخير أعمال الربّ فيؤمن.

أمّا فصول القسم الأول فقد نُشِرت تباعًا في مجلّة النور، منذ خريف ١٩٩٨، كسلسلة مقالات تحت عنوان عامّ هو "المأسسة في الكنيسة".

رُبَّ سائل يستفسر عن علاقة عنوان الكتاب بعنوان السلسلة. هنا تَكْمن الإشكالية التي قادتني إلى كتابة ما كتبت. فالكنيسة جسد المسيح ملقاة في الدنيا اليوم تمامًا كما خرج السيد إلى العالم من بطن مريم. وكلٌّ منا أخذ على عاتقه، منذ أن ماتَ للرب في جرن المعمودية وقام معه من هذا الماء وحمل مواهب الروح، أن يدعو كفيليبس: تعال وأنظر! لأنه صار هو أيضًا تلميذًا ليسوع.

لكن، ماذا سيرى نثنائيل هذا القرن؟ أين تجلّيات السيّد من خلال عروسه اليوم والآن وهنا؟ أخذت على عاتقي، مع إيماني العميق بقدسية الكنيسة، أن أسْأَل بصدق عن مواقع الضعف التي تحجب هذه القدسية بسبب من "مَأْسَسَة" هي تأثير الفكر الدنيوي على حياة الكنيسة في العالم. حسبي أنّ الأمانة تقتضي الصدق، والصدق يُبْنى على المعرفة، والمعرفة وليدة الواقعية. فلو تبيّن للبعض أن تشخيصي للواقعية وقح فهذا عيب فيّ وأستميحهم عذرًا. لكن، ولهذا السبب أيضًا، جاء كثير من الصياغة بشكل أسئلة تتيح للقارئ مجال التساؤل إن أراد ذلك، فيلج إلى الحقيقة ويشهد لها نتيجة معاناة

في العمق. في اعتقادي أنّ جلّ ما يشكّل خطرًا على وصول الشهادة المسيحية إلى عالم متعطّشٍ لهويةٍ تناسبه، هو المتحفيّة التي حلّت في تعاطينا الكنسي محلّ الأصالة.

وكلمة "مأسسة" التي سترد كثيرًا في النصّ، مستعملة بمضمون سلبي لأنّها غير الترتيب والتنظيم وإيجاد أطر تعامل وتواصل وتكامل. ألمأسسة في النصّ هي في إعطاء الأولوية للشكل على حساب الجوهر، وفي الانقطاع عن مساءلة الشكل، وفي عبادته كصنم غير قابل للتبديل والتغيير وحتى للإلغاء إن كان هذا يخدم الشهادة للسيّد.

لم أشأ، في هذه السلسلة من المقالات، أن أدخل في كل التفاصيل التي تفترضها معالجة كل وجه من وجوه المأسسة التي أتطرق إليها. لكنني اكتفيت بأن أطرح على ضميري أولاً، وضمير المؤمنين كافّة ثانيًا، أمورًا أعتقدها شائكة، تطال كافة أوجه حياتنا في المسيح، وهي:

١ – الحياة التعبّدية في فصلين: الصلاة والصوم.

٢ – الحياة التقديسية في فصلين: الأعياد (عيد الميلاد نموذجًا)، الأسرار (الزواج نموذجًا)

٣ – الحياة "في" الكنيسة في فصلين: الخدمة والمال

٤ – الشأن التربوي في فصل واحد حول التنشئة في المسيح.

أخيرًا سمحت لنفسي، في القسم الثاني من هذا الكتاب وفي خاتمته، بأن أطرح سُبُل معالجة وأفكاراً عملية حول حياة الكنيسة وبنيان جسد المسيح وإقامة المؤمنين في حضرة الله الدائمة، لتكون مجال مداولة ونقاش وقبول أو رفض، علّنا نخرج من رتابة هي أشبه بالموت. فالقيامة، التي نُعيِّد لها في الكنيسة المستقيمة الرأي، ليست فقط في الفصح بل كلَّ يوم أيضًا وخصوصًا في الآحاد. القيامة تَحَدٍّ مستمرٌّ لما من شأنه أن يجعلنا نستريح لشكلٍ مهما سما، ويعيقنا عن المساهمة في "جعل كل شيء جديدًا" (رؤيا يوحنّا ٢١:٥) كوارثين حقيقيين للجالس على العرش.

القسم الأول

ألفصل الأوّل

أن نصلّي

ألصلاة والنموّ في المسيح

"هذا الجنس لا يخرج إلا بالصلاة والصوم" (مرقس ٩:٢٩). بهذا الكلام توجّه السيّد إلى تلاميذه لمّا استعصى عليهم إخراج الروح الشرّير.

"صوموا لئلاّ تدخلوا في التجربة". هذه كانت وصيّة الرب حتى يقاوم المؤمنون الفكر الدنيوي الذي من شأنه أن يقضي على خصوصيّتهم.

"أما أنتم إذا صليتم فصلّوا هكذا: أبانا الذي في السموات..." (متّى ٦:٩) فالصلاة إذًا وسيلة وليست هدفًا. هي نسيج الحياة في المسيح لأن بدونها لا نستطيع أن نعرف أنفسنا وأن نقترب من الله: بها نميّز الروح الشرير ونخرجه، بها نحفظ أنفسنا من طغيان الشرّ على تصرّفاتنا (والشرّ هنا هو كلّ ما يناقض المحبة)، بها نجعل ذواتنا أبناء الله (أي شهودًا لمحبته)، فنستحق رحمته.

إشكالية الشكل والفحوى

لكن، وفي الوقت نفسه، في العظة على الجبل، ينسف الربّ التقاليد المتحجّرة، طارحًا بحدّة مشكلة معاصرة، ألا وهي إشكالية طغيان الشكل على الفحوى، وإحلال الطقس مكان العبادة، والاكتفاء بالكلام على حساب العمل. ألم يقل الرسول أيضًا إنّ الإيمان من دون أعمال مائت؟

هذه الإشكالية ليست ذهنية كما يحلو للبعض أن يتصوّر. ثمّة أسئلة يجدر بنا أن نتأمل بها قبل الاستخفاف بعمق المشكلة التي نواجه في الكنيسة بشأن الصلاة. وعلى سبيل المثال لا الحصر:

أ- نحمد الله على أنّنا لا نزال، في عدد من كنائس أنطاكية، نتذكّر القدّيسين في أعيادهم، ونقيم خدم سرّ الشكر بالمناسبة. لكن لمن؟ فالكنائس في أيام الأسبوع مهجورة إلاّ من قلّة. وكثيرًا ما يكون أصحاب الشأن المعيّدين في أشغالهم أثناء الخدمة. أين العلاقة هنا بين الصلاة وبين المرجوّ منها؟ أفلا تتحوّل الصلاة لتصبح الهدف عوض أن تكون الوسلية،وذلك بسبب طغيان الشكل؟ هل فكّرنا بحلول للموضوع أم اعتبرنا إقامة الصلاة في وقتها التقليدي كافيةً لننام قريري الأعين؟

ب- لست أدري إن كان هناك من إحصائيات جدّية في أنطاكية حول ارتياد الكنيسة. هناك من يقول إن النسبة العامّة هي بحدود الـ ٥٪. لكن الأكيد أن الفرق هائل بين عدد الممارسين كلّ أحد مثلاً (ناهيك من الصلوات الأخرى) وعدد المشاركين في صلوات المواسم الكبيرة (خصوصًا في أسبوع الآلام وعيد الفصح). هل هذا طبيعي؟ ما السبب في ذلك؟ أَلَيس السببُ، رتابةَ تكرارٍ يؤكّد الشكلَ (في النصّ والأداء)، مهمِّشًا دور المؤمنين في الصلاة، متناسيًا علاقتها بحياتهم، مهمِلاً بُعدها الرعائي؟

ج- إذا ما تساءلنا، في تاريخ الكنيسة، عن البعد الرعائي للصلاة في الجماعة، هل نجد مكانًا لخصوصيةٍ لها في حياة الرعايا؟ أما كان زمنٌ كان فيه التنظيم الصلاتي في الرعايا مختلفًا عنه في الأديار؟ ألم نفرض نمطًا رهبانيًا، وشكلاً إمبراطوريًا، على أناس ليسوا رهبانًا ولا سكان بَلاط الامبراطور البيزنطي؟ وندافع بحجّة التقوى عن هذا وذاك، وتُهْجَر الكنائس... أليس من حقّنا، بل من واجبنا، أن نسأل ونتساءل؟

ألصلاة بين "الجوّ" و"النموّ في المسيح"

أسوق هذه الأمثلة فقط للدلالة على ضخامة المشكلة القائمة، وكيف أن الشكل

طغى على الجوهر واستَبدل من هدف الصلاة أداءً خارجيًّا اعتدنا على تسميته "جوّ" الصلاة. أجل، رُبَّ قائل إنّ "الجوّ" في الصلاة هو بأهميّة التعبير. فالشموع والموسيقى واللباس والكلام والعمارة، كلُّها أساليب تساهم في خلق هذا الجوّ الذي يدعو إلى الصلاة والخشوع والشعور بالانتماء إلى جماعة واحدة إلخ...

طبعًا، من الممكن تبرير هذه العوامل الخارجية بحجة أو بأخرى، لكنّ استبقاءها رهن باستنادها إلى أسس هي وحدها الصالحة كمحكّ لفحص أيّ ترتيب كنسي من أيّ نوع كان ومن أيّ زمان. فالقدسية في الكنيسة ليست للجمود. نحن لا نعبد مومياء. القدسية في الكنيسة هي فقط لمن يصنع كلّ شيء جديدًا، ويصنع ذلك باستمرار. والأساس الوحيد الصالح للحكم على مقدار مصداقية أي ترتيب في الكنيسة هو "النموّ في المسيح"، أو، بمعنى أبسط بكثير، أن نسعى كي يسلك كلّ منا، وتسلك الجماعة كلّها، كما لو أن المسيح يسلك لا نحن. ولنا في حياته مرجعيّة نحتذيها.

فـ"الجوّ الصلاتي" ليس هدفًا لأنه مجرّد مجموعة أشكال موروثة تاريخيًّا، وهي خاضعة للنقد والتمحيص والتغيير كغيرها من المعطيات الظرفية التي نعيشها. الهدف الحقيقي هو أن تقودنا الصلاة إلى النموّ المرجوّ.

ألصلاة وأبعادها الثلاثة

رأت الكنيسة، في حكمتها، أن تضع على طريق المؤمنين، في سَعْيهم الدؤوب للنموّ في المسيح، محطّات تَأَمُّل تساعدهم على عملية الارتقاء المطلوبة منهم. فاعتمدت لذلك خَطَّيْن متوازيين: الأوّل يَتَمَحْوَر حول الحَدَث الخلاصي، والثاني يدور حول الشخصيات المُتَقَدِّسة. وفي الحالتين، هيّأت الكنيسة للذكرى بالصلاة وبالصوم. فالتهيئة بالصلاة تَتَّخِذ بُعْدًا تربويًّا هامًّا لأنّها تُخْرِج الخدمة من الترداد، والتهيئة بالصوم تَتَّخِذ بُعْدًا كيانيًّا لأنّها تتعدّى الذهن والأجواء الخارجية المساعِدة إلى الكيان كله من خلال الافتقار إلى الله وحده، فيدخل الإنسان بكُلِّيته عملية التهيئة هذه. حتى يتوضّح

لنا الأمر أكثر، سأتوقف هنا عند ما أعتبره أبعادَ الصلاة، وهي، بتقديري ثلاثة، تاركًا للفصل الثاني معالجةَ موضوع الصوم.

البعد الأوّل المتمثّل بالحالة الصلاتية (أو الليترجيا)

يعلّمنا أساتذة الليترجيا (أي مجمل الترتيب الصلاتي في الكنيسة) أنّ الآباء نظّموا صلاة الجماعة بهدف تقديس الإنسان: في يومياته (من خلال الصلوات اليومية) وفي سنته (من خلال الصلوات الموسمية) وفي حياته الشخصية ضمن الجماعة (من خلال ما اعتدنا على تسميته أسرارًا)، وهذه كلّها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالصلاة الشخصية المستمِرَّة. ما هو القصد من هذا الترتيب؟ بسيط جدًّا! أراد الآباء أن يضعونا في "حالةٍ صلاتية" بواسطة محطّات يومية وسنوية وشخصية، فتؤمّن الكنيسة هكذا للمؤمن المُناخ اللازم ليحيا نموَّه في المسيح، وتكون الجماعة منطلَقَه إلى العالم.

لكن ماذا نشاهد اليوم؟ نشاهد ترتيبًا لم يتغيّر في الشكل، هذا صحيح! لكن، تُرافِقُ هذه "المحافَظَة" شكوكٌ كبيرة حول فاعلية ما نحن عليه قياسًا على الهدف المرجوّ: فالصلوات اليومية غابت تمامًا (تقريبًا) عن الرعايا، والمواسم أضحت بالنسبة للعديد من المشاركين فيها محطّاتٍ معزولةً لا تخلو من الطابع "الفلكلوري"، والأسرار تحوَّلت مناسباتٍ اجتماعيةً فردية، أُفرِغت من بُعدها التقديسي، ولا علاقة لها بارتباط المؤمن برعيته. لذا نسأل اليوم عن أسباب فقدان هذه الفاعلية وعن ضرورة كشفها، لنعيد للشكل روحه وللحالة الصلاتية فاعليتها. فباضمحلال هذا البُعد الأوّل، ألا وهو السعي لخلق "الحالة الصلاتية" عند المؤمن، تبدأ المشكلة الحقيقية. الأوجه الطقوسية موجودة عند الشعوب كافّة وفي أقصى المعمورة. فلا الصلوات اليومية ولا الصلوات الموسمية ولا الأوجه الطقوسية من ابتداع المسيحيين. فأين خصوصية المسيحية إذًا؟

محورية الصلاة الشكرية

يقوم البُعد الثاني على محورية الصلاة الشكرية في الكنيسة. يضع البعد الأول الإنسان بكلّيته في حالة صلاتية. لكن، في المسيحية تركيز خاصّ على محورية صلاة محدَّدة كمنبع ومصبّ لكلّ أنواع الصلوات، أعني الصلاة الشكرية، أي القدّاس الإلهي، هذه الصلاة التي تُذكِّر بالانتماء الملكوتي وبوحدة الجماعة في المسيح، وبخصوصية المؤمنين كشهود له في العالم.

لكنّ سرّ الشكر تَحوَّل إلى أداء جميل، يتكرر أسبوعًا بعد أسبوع، دون أن تكون له أية علاقة بحياة المؤمنين (إذ فُصِل عن باقي الصلوات التقديسية كالزواج والمعمودية والدفن إلخ...)، متجاهلاً (إلاّ في بعض الاستثناءات العزيزة) ما له علاقة مباشرة بشهادتهم في العالم وبخصوصيتهم كشعب الله (رغم أن هذا هو سبب الاجتماع الشكري الأساسي[1])، ناهيك من تَحَوُّل هذه الصلاة المميَّزة (التي ندعو فيها لـ "إغلاق الأبواب" تحضيرًا لـ "خروجنا بسلام" إلى العالم...) إلى مجال لاحتفال دنيوي بدعوة غير الأرثوذكسيين لـ "الحضور" وكأننا في مسرح... فطغيان الشكل هنا بلغ حدّه الأقصى إذ أن طغيان المَأْسسة جعل من الكنيسة مؤسَّسةً من العالم، تسلك كأهل العالم، مسخِّرةً بذلك أقدسَ ما عندها لأغراض غير هدف الصلاة الوحيد أي النموّ في المسيح. أضحت محوريةُ سرّ الشكر عندنا تتمثَّل فقط بأنها الصلاة الوحيدة الأسبوعية الثابتة في كلّ الكنائس، لكن بصورةٍ تمسخ ما أراده لها الآباء أصلاً، وذلك منذ فجر المسيحية. فبخسارة هذا البعد الثاني فقدنا ليس فقط "الحالة الصلاتية" بل أيضًا "هويّتنا" كشعب الله.

البعد الشهادي للحالة الصلاتية

أمّا البُعد الثالث والأخير الذي أودّ التوقّف عنده فهو البعد الشهادي للحالة

١- يمكن في هذا المجال مراجعة كتاب الأب نيكولا أفناسييف **"كنيسة الروح القدس"** الصادر عن منشورات النور.

الصلاتية. فحتى لو اتخذّت الصلاة شكلين أساسيين، ألا وهما الصلاة في الجماعة والصلاة الفردية، إلاّ أنها لا تصبح "حالة" إلاّ بمقدار ما ترتبط بترجمةٍ تعبّر عن مصداقية الشكل، وهذه الترجمة هي الشهادة.

إذا تأمّلنا ولو سريعًا بالصلاة الربانية، لوجدنا كيف أن الربّ علّمنا أن نصلّي، بعد الابتهال، بربط تعامله معنا بتعاملنا مع الآخرين: "واترك لنا ما علينا، كما نترك نحن لمن لنا عليه" من ناحية و"نجّنا من الشرير" من ناحية أخرى. فالغفران يعني أن تقبل الآخر حتى عندما يخطئ إليك، والنجاة من الشرير هي أن تحفظ نفسك أن تؤذي أخاك الإنسان (لأنك لا تؤذي الله إلاّ بقدر ما تكره أخاك).

هذا هو أيضًا موقع صلاة القديس أفرام السرياني، الذي نجعل منها قِبْلة تأمّلاتنا في زمن الصوم الأربعيني المقدّس. فالصلاة هذه كلّها عبارات تدل إلى كيف تسلك مع الآخرين تواضعًا وصبرًا ومحبة وخدمة ولطفًا في الكلام وفي المسلك.

وبالعودة إلى سرّ الشكر كما عرفته الكنيسة الأولى، فقد تجلّى البُعد الاجتماعي للمناخ الصلاتي بوضع هبات المؤمنين تحت أقدام الرسل ليتمّ توزيعها على المحتاجين، فكان قول معاصريهم: "أنظروا كيف يحبّون بعضُهم بعضًا". فأين سلوكنا الذي يربط الصلاة ربطًا وثيقًا بروح الشهادة هذه؟ لا أذكر إلاّ كاهنًا واحدًا هو الأب بيار ستروف، الكاهن والطبيب الباريسي، الروسي الأصل، الذي أصرَّ دومًا على أن يذكر بالتفصيل في الخدمة الشكرية كل من يخضعون للتعذيب المادي أو المعنوي (كمهجَّري فلسطين)، أو يذوقون القهر والاضطهاد (كالمساجين السياسيين)، أو يعيشون في أجواء الحروب (كفيتنام وقتئذٍ) إلخ... وبفقداننا هذا البُعد الثالث والأخير، أصبحت صلاتنا تتراوح بين الترداد والعاطفة، محْدِثةً شرخًا بين العقل والإيمان، بين المعتقد والمسلك... فإذا بنا نعيش جميعًا نوعاً من الانفصام بين هويتنا المزعومة وبين واقعنا الصلاتي.

من الصلاة بالشكل إلى الصلاة بالفعل

إعتماد الكنيسة ترتيبًا يتناسب وزمنًا ما ومعطياتٍ حضاريةً ما، يساهم في خلق المُناخ المناسب لازدهار الحياة في المسيح. هذا أمر هامّ للغاية، ولا تنقص عنه أهمية اليقظة الدائمة، حتى لا يُصْبِح أيّ ترتيب جامدًا وغير قابل للتعديل، فيَطْغى على المبدأ وعلى سبب وجوده، ويعرقل النموّ في المسيح لاغيًا حرّية أبناء الله وما تخلق من جوّ مؤاتٍ لتفتُّق المواهب.

آنيّة الترتيب الزمني

كلُّ ترتيب قائمٌ في الزمان والمكان أصلاً. لذلك ليس من شكل هندسيّ مقدَّس، ولا من لغة مقدّسة، ولا من موسيقى مقدّسة، ولا من حركة مقدّسة، ولا من تنظيم مقدّس.

لماذا لا نقيم مثلاً الذبيحة الإلهية مساء في الأعياد إذا كان هذا التدبير بحضور للمؤمنين أفضل؟

لماذا لا نعتمد نصوصًا جديدة تجعل من الأعياد الجديدة التي استحدثها العالم أعيادًا كنسية كعيد العمل وعيد الأمّ؟

لماذا لا نفكّر بتجديد موسيقيّ يجعل الترتيل في الكنيسة أقرب إلى ذوق الشباب اليوم؟ ألم تكن الموسيقى المعتمدة اليوم كـ "موسيقى كنسيّة" هي الموسيقى الشعبية في زمان تأليفها؟

أليس كلّ الجمود الذي نعرف في الميادين المختلفة مأسسةً مميتة؟ أنا لا أدعو للتغيير من أجل التغيير، بل أدعو للفحص وللسؤال. ألم يكن هذا أسلوبَ الربّ في تعامله مع الآخرين: يسألهم ليسلّطوا الضوء على أنفسهم ويكتشفوا مواطن الضعف التي تبعدهم عنه؟ ألم يحن الوقت الذي نسأل فيه أنفسنا عن ما ورثناه، وإن كان هو فعلاً "التقليد الشريف"، أم إنه صنم ابتدعناه فأقام، في النهاية، حاجزًا بيننا وبين المسيح؟

فعل الكلمة أو التعبير بالنصّ

ما تقدّم يقودني إلى مجال أوسع وربما أكثر خطورة ألا وهو التعابير الصلاتية. يُطْلب من المؤمن اليوم أن يعتمد نصًّا صلاتيًّا ينتمي إلى ثقافة غير ثقافته ولو صِيغَتْ لهذا النصّ عمليًا لغة مناسبة[٢]. فإذا أردنا للنصّ الصلاتي أن يكون مُحَبَّبًا ومفهومًا (حتى يستطيع المؤمن أن يقول آمين، عملاً بقول الرسول بولس في رسالته إلى أهل كورنثوس) فلا بدّ من أن يراعي بعض المعطيات العلمية التي تسمح للتواصل بأن يقوم.

الكلمة فعلٌ. أعاد عِلْم اللسانيات اكتشاف هذه الحقيقة. وفي تراثنا أن فعل الخلق كلّه كان بالكلمة. والتجسُّد كان تجسُّد "الكلمة". والخلاص فعل هذا "الكلمة". فكيف نقبل باستمرار صنمية التعبير عندنا في النصّ وفي الوعظ وفي التعليم على العموم[٣]؟ كيف نُطَوِّع أنفسنا لنستعمل التعبير المناسب اليوم لإيصال فحوى البشارة فلا نقع في الاجترار والتكرار المميتين؟ كيف نعيد تنظيم الأداء الصلاتي من خلال تنظيم نصّيّ يراعي التطوّر الثقافي فيؤدّي الشهادة المطلوبة منه اليوم في ظروف اليوم؟

ربّ قائل: "أنت تذبح لبعل وتهادن". ألم يقل الرسول بولس إن عليه هو أن يتأقلم مع الآخرين من أجل البشارة؟ هل نتّهم رسول الأمم بأنه يذبح لبعل؟ ألم يقم بهذا الجهد الثقافي قدّيسون كبار مثل "كاروز أَلَسْكا"؟ من قال إن التعابير التي وضعت منذ قرون[٤] هي الملائمة في الرعايا لبنيان جسد المسيح في القرن الحادي والعشرين دون تبديل وتغيير؟ أليست هذه هي المأسسةَ بعينها؟

٢- نشكر الله على أننا في أنطاكية ننعم على الأقل بلغة في العبادة لا تبعد عن لغتنا الأمّ، حتى ولو لم نقلع بعد تمامًا عن اللغة اليونانية هنا وثمّة.

٣- أترك لمقال آخر (المأسسة ٦) الكلام بتوسُّع على إشكالية التعليم.

٤- خصوصًا إذا تذكّرنا أنّ العديد منها شعر يوناني وضع في صيغ شعرية محدَّدة كانت سائدة في ذلك العصر.

ألصلاة بالحياة

أخيرًا وليس آخرًا، وحتى لا أقع في المحظور نفسه الذي يشدِّد على الأوجه الشكلية، لا بدّ لي من إعادة التشديد على مبدأ "الصلاة بالحياة".

طبعًا كانت لنا في الكنيسة، وفي بعض الأحيان، ومضات من هذا القبيل: فدَعَونا في الكنائس لجمع التبرعات من أجل كارثة أرمينيا، وفي بعض الأحيان من أجل أطفال العراق ومن أجل كافة المهجَّرين من يوغوسلافيا... إلخ. لكنها تبقى ومضات لا ترتبط بحسّ عميق حيال تقصيرنا في مجال عيشنا البُعدَ الاجتماعي للصلاة.

هل يدخل هذا الموضوع سلّم أولوياتنا مثلاً عندما نقرِّر بناء كنيسة؟ أم إنّ "مجد الطائفة" هو الذي يستأثر بطروحاتنا؟

هل نربط تقدمة المؤمنين كلَّ يوم أحد بمشروعٍ ذي بُعد اجتماعي، فتكون لنا إذّاك وقفة صلاتية خاصّة ويعي المؤمن أنّ تقدمته المالية مكمِّلة لصلاته؟

هل نعطي لخدمة موائد الأرامل والفقراء الأولوية على خدمة الراحة والزخرفة في بيوت العبادة، على أهميتهما؟ ألله لا يسكن بيوتًا من حجارة، بل يسكن بيوتًا من لحم ودم... الفقراء في كلّ رعايانا هم هيكل الله الحقيقي، وما عدا ذلك مجدٌ باطل.

ألصلاة الدائمة

هذا يقودني إلى الشقّ الأخير من كلامي، وهو لتأكيد وحدة التوجُّه في مقاربة موضوع الصلاة.

فقد ابتكرنا، مؤَخَّرًا نسبيًّا، في تعاملنا الكنسي، "الروحيّ" نعتًا لما له علاقة بأوجه الصلاة الشكلية، والتي، على أهميتها، ليست كلَّ الصلاة، وربما تنافت حتى مع الصلاة الحقيقية في بعض الأحيان وبعض التصرُّفات. كل ما نقوم به ويقود إلى بنياننا في المسيح هو عمل "روحيّ": الصلاة ليست "روحية" إذا اقتصرت على الشكل و لم تَرَ لها ترجمةً

في الحياة. تمامًا كما أنّ الأخلاق ليست "روحية" إذا لم تنبع من فعل محبّة الآخر. كذلك الصوم ليس "روحيًّا" إذا لم يقترن بالتضحية المالية من أجل الفقير.

حياتنا الروحية، أي حياتنا في المسيح، هي أن نحيا في حضرة الله الدائمة، فتكون صلاتنا دائمةً وحاضرةً في كلّ فعل من أفعالنا.

أين انعكاس الصلاة في البيعة؟

لذلك، وحتى نخرج من المأسسة التي تدفع المؤمنين إلى هجر الكنائس، والشبابَ الى مقت الصلوات، والممارسين إلى الوقوع في الرتابة، لا بدّ من إعادة اكتشاف انعكاسات الحالة الصلاتية، أو المُناخ الصلاتي، على البيعة ككلّ. فِعْل التجسُّد فِعْلٌ تاريخيّ مستمرّ وليس فقط فعلاً ظرفيًا مرتبطًا بحياة السيّد على الأرض. فالكنيسة جسد المسيح بمقدار ما تمدّ فعلَ التجسُّد، أي البُعد الخلاصي، في الواقع المعيوش.

كيف ستصبح الحالة الصلاتية دعمًا لحياة الأشخاص في مجال تقديسهم؟

كيف ستترجَم الحالة الصلاتية في خدمة الفقراء والمحتاجين والمعذّبين؟

كيف ستعبِّر الحالة الصلاتية عن روح فقر، وبساطة إنجيلية، وتواضعٍ حقٍّ، على صعيدَيّ الأفراد والجماعة؟

أليس لنا أن نستنبط الوسائل التي تخرجنا من دوّامة الفتور الذي أوجدته المأسسة في الكنيسة؟ أم إننا آثرنا المتحفية على حِدَّة الرسالة؟

ضرورة الارتفاع بالشكل إلى مستوى الجوهر

مَأْسسة الصلاة عندنا بلغت حدًّا لا مثيل له. أجرؤ على أن أقول إننا نكاد، لشدّة تمسُّكنا بهذه المَأْسسة، نعبد أصنامًا اسمها ألحانٌ، وثيابٌ كهنوتية وأداءٌ مسرحيٌّ ونصوصٌ موروثة فقدت بعدها، وحجارةٌ نريد أن نحبس الله فيها. سيقول البعض:

ماذا يبقى من الأرثوذكسية لو غيّرنا كلّ ذلك؟ أنا لا أدعو إلى ذلك بالمطلق. لكن، إمّا أن نعيد لكل هذا روحه (متى كان ذلك ممكنًا[٥]) ونلصقها بالرب يسوع بروح فقر وخدمة وشهادة، وإمّا فليكن لنا ما يكفي من الصدق والتواضع لنقول إن ما نعيشه هو قليل من الأرثوذكسية ممزوج بكثير من اليهودية والبَلاط الامبراطوري والهويّة البيزنطيّة المزعومة.

يمكن أن يُفهَم من كلامي أنني لا أعطي الشكلَ الأهميةَ التي يستحقّ. هذا ليس بالأمر الصحيح. فالشكل مدخلنا إلى القلوب، من جهة، وهو مرآتنا تجاه العالم، من جهة أخرى. لكنّني أريد أن أدافع عن ظرفية الشكل وعن ضرورة تطويره فلا تستعبدنا أشكالٌ.

فَهَلْ لنا، مثلاً، أن نعيد النظر في الترتيب الصلاتي في ليترجيا الجماعة، خصوصًا في الرعايا؟ فنأخذ بعين الاعتبار واقع الكهرباء، ووجود المصانع، والتغيرات الاجتماعية على أشكالها، ونضع أنظمة لأوقات الصلوات تتناسب مع هذا الواقع الجديد[٦]؟

هل لنا، مثلاً، أن نعيد النظر في النصوص الطقسية فنجدّد فيها مستجيبين المقتضيات الحضور في العالم، ونغيّر فيها على ضوء المعطيات الحضارية الجديدة؟ فاللغة هي للتواصل، والقدسية ليست للتعابير بل لما هو وراء القصد. ما النفع من استعمال عبارات لا يفقهها السامع، ومن اعتماد أسلوب لا يحاكي عقل المؤمنين اليوم؟ أم إننا نريد تكريس الطلاق بين الإيمان والعقل! ماذا يمنعنا، مثلاً، عن ذكر العلم والعلماء فنكفّ عن ذكر الملوك وجنودهم[٧]؟

٥- لأنه لا بدّ من الاعتراف بأنّ بعض الأمور بحاجة إلى الإلغاء.

٦- فعلنا ذلك مثلاً في صلوات الأسبوع العظيم لأنّ المؤمنين يحبون هذه الصلوات: فنصلّي السحر مساءً، والغروب صباحًا...

٧- وجدت نفسي مثلاً في وضع انفصام بالشخصية في إحدى رعايانا في أبرشية شمال أميركا، والكاهن كان يصلّي لنصرة جيش الولايات المتحدة، الذي كان، حينها، يعمل في فياتنام... فماذا اليوم وهو يقصف العراق وأطفاله؟

هل لنا، مثلاً، أن نعيد النظر في الأداء الطقسي، فنكسبه بساطةَ العصر وحركيّةً شعبيّةً أفْعَل؟ فنعطي الطابعَ الاحتفاليَّ حجمَه المتناغم مع البساطة الإنجيلية، فلا تكون المظاهر الأدائية عندنا مجال عثرة للفقراء وللمتعقلين بل مجال تربية وخدمة.

أن نبني بالصلاة يعني أن تُجْبَلَ حياةُ المؤمنين بالصلاة. فهل كثيرٌ علينا أن نقف وقفة صادقة ونسأل، ولسان حالنا كالنبي: "غيرة بيتك أكلتني"!

ألفصل الثّاني

أن نصوم

ألمدخل

"ألمسيح قام من بين الأموات ووطئ الموت بالموت ووهب الحياة للذين في القبور!" نرَدِّدُ هذا الكلام مرارًا في الخدمة الفصحية وفي الأيّام التي تَليها. نخرج من الكنائس نتصافح ونقول: ألمسيح قام! حقًّا قام!

ثبات أم جمود

نسْمَعُ في نهاية سرّ الشكر الذي نتَذَكَّرُ فيه القيامة، عظة القديس يوحنا الذهبي الفم الشهيرة، والتي يدعونا فيها إلى المائدة الإلهية حتى لا يخرج أحدٌ جائعًا. نسمع القديس العظيم، الذي أَوْدى به حبُّه للفقراء إلى مجابهة الإمبراطور، فحَكَم عليه المجمعُ اللصوصي، وخُلِع ونُفِي، نسمعه يُشَبِّه البيعة المؤمنة بعمّال المَثَل الإنجيلي حيث لا فرق عند السيّد بين من أتى في الساعة الأولى ومن أتى في الساعة الحادية عشرة... إذ إن المهمّ، في نهاية المطاف، هو أن يصل الإنسان إلى الله.

نسْمَعُ هذا كلَّه، ونَفْرَح، ونبارِكُ البيض، ونوَزِّعُ الحلوى، ونقول: كلَّ سنة وأنتم بخير. فالسنةَ المقبلة سنصوم الخمسين يومًا من جديد. والسنةَ المقبلة سنجثو عند قدمَي المصلوب وندعو لقيامته. والسنةَ المقبلة ستُقْرَع الأجراسُ مجدَّدًا وتَنْفَتِح الأبواب الدهرية ليدخل ملك المجد! لكن في السنة المقبلة أيضًا، هل سيبقى الفقير على فقره، والغنيّ على

غناه، والكنيسة مُتفرِّجَةً على هذا وذاك؟ في السنة المقبلة أيضًا، هل ستَهْتَمُّ لجان الكنائس بتغيير هندام الكنيسة الخارجي فقط: فالسواد للجمعة العظيمة (المدعوّة أيضًا الجمعة الحزينة بالنسبة إلى البعض منّا)، والأبيض للفصح، دون أن تتساءل بالضرورة عن تغييرٍ في حالة المؤمنين يقضي باستمرار حزنٍ أو باستحقاق فرح؟ في السنة المقبلة أيضًا، سنعزّي أنفسنا بعظة أو بمقال، قابعين في غفوتنا، شبه أحياءٍ في قبرٍ حجمُه العالم.

ألشكل والجوهر

فالحزن شكليّ، والفرح شكليّ، والطقوس، كما نمارسها، تَخْرُج على كلِ منطق رعائي بنّاء، كما سبق وقلت في الفصل الأول... المهمُّ أن لا يُمَسّ ما اعْتَدْنا عليه من ترتيب وتنظيم، في جوٍّ من المَأْسسة ضاغط. حَسْبُنا في ذلك المقولة: أليس الشكل هو عنوان الثبات؟ هو ضمان الاستمرارية هو ضمان الأصالة؟ ألإنسان زائل على كلِّ حال... فَلْنَهْتَمّ إذًا بما هو ثابت، لأنه "النصيب الصالح الذي لا يُنْزَع منّا"!

لا، يا سادة! التاريخ يعلّمنا بشكلٍ واضح وجَليّ، واليوم أكثر من أيّ يوم مضى، أن لا شيء في الشكل الظاهر ثابت. حتى الكنيسة التاريخية في مكانٍ ما وفي زمانٍ ما ليست ثابتة بالمطلق. الكنيسة "التي الربُّ في وسطها فلن تتزعزع" ليست الكنيسة التاريخيةَ التي لها من الكنيسة الشكل الخارجي، بل هي التي يحكم فيها الربُّ يسوعُ فكرًا وعملاً: "أما نحن فلنا فكر المسيح" أو "لست أنا أحيا بل المسيح يحيا فيّ". لذلك، سؤالي اليوم في مجال المأسسة التي تتأكّلنا في الكنيسة، هو بالضبط عن القيامة كزمن جديد تحيا فيه الكنيسةُ جسدُ المسيح حياةً ليست من هذا العالم، وعن الصوم المُهيِّئ لها من حيث هو حالة وليس من حيث هو ترتيب.

ألذكرى والتّهيئة لها

كما في مجال الصلاة، كذلك في إطار الصوم، تجعل الكنيسة من تاريخ البشر أداة

للارتقاء إلى ما هو فوق الزمن الآلي، إلى زمن الصليب. من هنا إن التهيئة لذكرى معينة تأخذ بعدًا مختلفًا عن أي ذكرى دنيوية فهي مجال التذكُّر أنّنا نحيا على الأرض بفعل الملكوت الذي في قلوبنا وما التهيئة بالصوم إلا مسعى من الكنيسة حتى يدخل كياننا كلّه وليس فقط ذهننا في عملية التهيئة هذه. ولأن الكنيسة مدركة تمامًا أنّ الإنسان مدعوّ إلى المشاركة بكل كيانه في عملية الخلاص، فهذا الكيان كلّه يدخل عمليّة التهيئة للذكرى، مجال استنْزال السماء على الأرض.

الحالة والعادات

لن أزيد هنا في موضوع الصلاة شيئًا، لكن أكتفي بلفت النظر إلى أهمية صلاة القديس أفرام السرياني التي تظلل الصوم الكبير من أوّله إلى آخره، وهي تعطي فكرة واضحة عن مدى التبدُّل المطلوب منّا كجماعة وكأفراد.

لكن، ماذا بالنسبة إلى الصوم؟ ما هو الصوم؟ وما موقعه بالنسبة إلى المؤمنين؟ وما موقعه بالنسبة إلى الكنيسة؟

هل نستطيع أن نقول براحة ضمير إنّ الصوم المعيوش في كنيستنا يتعدّى الشكل؟ هل نستطيع أن نقول بقناعة كاملة إنّ الصوم لم يصبح بالنسبة إلى العديد منّا هدفًا بحدّ ذاته، فغاب عن أذهاننا ارتباطُه بالشأن الكنسي؟ أتمنى أن أكون مخطئًا! لكن، وإذا ما كانت هذه هي الحال حقًّا، أفليست هذه هي المأسسة: طغيان الشكل على الجوهر وغياب (أو على الأقلّ عدم وضوح) الهدف؟

مُناخ الصوم

لم يخترع المسيحيون الصوم! فالصوم موجود قبل المسيحية، وليس فقط في اليهودية بل أيضًا في ديانات أخرى. وما نقوله نحن عن الصوم، في مجال التقوى

والانضباط الشخصي وترويض النفس والمصالحة مع الكون، وارد في تقاليد سبقت المسيحية وهي مستمرة حتى اليوم! أين خصوصيتنا إذًا؟ أم إنه ليس لنا خصوصية؟

بل أكثر من ذلك، الكلام على الصوم الذي يصبّ في قَهْر الجسد، لا ينسجِم مع التقليد الشرقي حول الإنسان وعلاقته بجسده، هيكلِ الروح القدس. ينزع هذا الكلام إلى الأفلاطونية التي رَفَضَها آباؤنا في الشرق المسيحي، واعتبروها مُشَرْذِمة لِوِحْدة الإنسان–الشخص ومتنافية مع الجِدّة التي هو مَدْعُوّ إليها بسبب القيامة. مشكلة هذا النوع من الخطاب التقَوي، أنه لا يفتح للإنسان رحابة الرجاء، بل يحدّه في اللَحْم المدعوّ إلى الانحلال، واللَحْم هنا غير الجسد الذي يرتفع إلى المجد بحلول السيّد فيه بالمناولة.

الشكل يقتل الروح تمامًا كما حلولُ اللَحْمِية محل الجسد يقتل الإنسان. فبمقدار ما نعي محدودية الشكل، يمكننا أن نَنْفُذ إلى جوهر الجديد الذي أتت به المسيحية في تعليمها عن الصوم. وبمقدار ما نجمّد الشكل ننغلق دون هبوب روح الله فينا!

فأين صومنا من التهيئة للقيامة لا في مَوْسِم مُعَيّن بل في استمرارية النمو في المسيح؟ هذا هو السؤال الذي يُخْرِجنا عمليًا من المأسسة لندخل في مغامرة الحياة في المسيح. الصوم أكثر من تنظيم، هو في المسيحية مُناخ.

من الصوم بالشكل إلى حالة الصيام

المشكلة التي يطرحها، على المؤمن، التمسّكُ بالشكل على حساب الجوهر، هي في فقدان البُعد التربوي الذي أرادته الكنيسة لأبنائها في عملية بنيانهم حتى يَصِلوا إلى ملء قامة المسيح، فيَصِحّ فيهم قول الرب لتلاميذه: "الأعمال التي أعملها ستعملونها وستعملون أعظم منها". هذا لا يعني أن لا تعتمد الكنيسة ترتيبًا ما يتناسب وزمنًا ما ومعطياتٍ حضاريةً ما. لكن هذا يعني أيضًا أن لا يُصْبِح أيّ ترتيب جامدًا فيَطْغى على المبدأ ويصبح من المستحيل العمل على تبديله.

آنيّة الترتيب الزمني

من حيث الشكل، فلنأخذ مثلاً نظام المأكل. هذا ترتيب ليس إلاّ. ونحن ننضبط به تمامًا كأبناء مطيعين. لكن، هل الله يهتمّ لِلّحم أو الجبن أو السمك؟ وإذا كان الامتناع عنها من مقوّمات الحياة في المسيح، فلماذا يُسْمَح غدًا بما هو ممنوع اليوم؟ لا! الأهميّة ليست في نوعية المأكل، فهذه تفاصيل. لذلك يحقّ لنا، كجماعة مستنيرة، إلى جانب الانضباط بما هو قائم، أن نسأل عن المغزي الأصليّ لهذا الترتيب، وعن امكانية وجود ترتيب آخر أقرب ربما إلى القصد الأوّل. من قال إنّه لا يحقّ للجماعة المسيحية، في آخر هذا القرن، أن تعيد النظر بما أوجدته هي نفسها منذ قرون؟ من قال إنّ مأسسة الصوم أهمّ من قصده؟

ويبقى السؤال: ما هو القصد؟

قال بولس إن الأكل للجوف وليس الجوف للأكل. ولا يتوانى الذهبي الفم عن الدعوة: "صمتم أم لم تصوموا... الأكل وفير فلا يخرجَنَّ أحد جائعًا...". لذلك وفي سَعْينا لفَهْم القصد من الصوم في التهيئة للقيامة، لا بدّ أن نفتش عن أمر آخر.

في اعتقادي أن القصد من الصوم مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالقيامة. ولأن كل الأصوام التي تلت الصوم الأربعيني المقدّس أتت، بسبب التقوى، على غراره، فالجواب الأساس هو عن السؤال التالي: لماذا نصوم استعدادًا للقيامة؟

ألبعد الوجودي للقيامة

جديد القيامة الأساسي هو في انتهاء عهد اللَحْميَّة وانتصار الجسد بالقيامة. فالمسيح، إذ فَجَّر الموت على الصليب، بَرْهَن بذلك عن انتصاره على اللَحْميَّة، فلا نجد أثرًا لانحلاله في القبر. وَطِيء الموت لأن الموت لم يستطع أن يَتَمَلَّك جسدَه، فكان "باكورة الراقدين". عدوّ الإنسان لَحْميَّته لأنها هي التعبير الوجودي عن الموت.

فانتصار القيامة هو في الانتصار على هذه اللَحْمِيَّة، والتحضير لهذا الانتصار يكون بالتسلّح ضِدَّها. لكن اللَحْمِيَّة فينا لا تتوقّف على تركيبتنا العضوية، بل هي أيضًا في كبريائنا وأنانيتنا ومحبتنا للمال، كما جاء عند بولس الرسول. ومن الخطأ الكبير في حياتنا اعتبار أن اللَحْمِيَّة لا تعبّر عن نفسها إلا من خلال أعضائنا: كبرياؤنا وأنانيتنا التي تعبّر عن نفسها بشتّى الطرق (ومنها الغضب والحسد والكراهية)، محبتنا للمال التي تعبّر عن نفسها بالتملّك والسعي المستميت لاقتناء المال، جميعها شِرْك ودَعْم دائب لِلَحْمِيَّتنا. من هنا أن الصوم، أساسًا، دعوة للتواضع وللافتقار معًا. كلّ ترتيب لا يُبْقي على هذه الأسس قولاً وحياة، يعيقُ الشهادةَ لخصوصيّة المسيحيّة في هذا المجال.

جوابي إذًا على السؤال الأساس هو هذا: أن نصوم يعني أن نفتقر ونتشبَّه طوعًا بمساكين هذا العالم. ما لا شك فيه، بالنسبة إليّ، أنّ هذا التوجه حاضر في صُلْب الترتيب الكنسي القائم، لكن، في جوّ المأسسة التي نعيش، لم يعد هذا جَلِيًّا. إمْتَنِع عن الأكل حتى الظهر، وكُلِ الخضار، وعُفَّ عن منتوج الحيوان... فيرتاح ضميرك وتفي بالواجب! بَقِيَ الشكلُ وغاب بُعْدُ الخدمة وبُعْدُ النموّ في المسيح، وحسُّ الجماعة.

ما دام في العالم بائس، وما دام في العالم مظلوم لم نسع لإطعامه ولرفع البؤس عنه، فالاكتفاء بالشكل يجعل من صيامنا كمحرقة قايين، لا يحضِّر للقيامة.

الصوم مدخل للحياة

أنا أعرف تمامًا أننا لن نَرْفَع بقدراتنا المتواضعة الفقرَ عن الملايين الذين يموتون جوعًا (وهل كان باستطاعة النسوة حاملات الطيب رفع الحجر عن باب القبر؟). لكن، ماذا فعلنا لنبدأ (النسوة توجَّهْن إلى القبر رغم ذلك...)؟ هل سَعَيْنا لتنظيمِ مُركَّز واحد يبتغي كشف محبة الله لمسكين واحد في العالم؟ دَعُونا لا نتكلم بغَطْرَسةٍ على الأعمال الحسنة التي نقوم بها هنا أو هنالك، وهي كالفُتات الواقع عن طاولة الغنيّ للعازر الفقير! بل لتكن لنا جُرْأة السيّد في الهيكل، مدافعًا عن حقّ أبيه. هل كان الصوم، مرّة

واحدة، مناسبةً سَعَيْنا فيها عمليًا لترجمة في الواقع المعيوش لفِكْر المسيحية الاجتماعي الذي يطلب من الأفراد أن يَفْتَقِروا طوعًا، وأن تكون الجماعة (كل الجماعة بوصفها شخصًا ممثِّلاً ليسوع المسيح) هي في ذلك مَثَلَهُم الأعلى؟ هل سَعَيْنا لأية مجّانية في العطاء أم إننا جعلنا من العطاء سببًا لأنانية أقوى وكبرياء أعمق؟ أين اللَحْمِيَّة التي ساهمنا برفعها؟ أيَّ موت سنُبيد مع الناهض من القبر؟

من قيامة بالشكل إلى قيامة في المسلك

هذا يقودني إلى الشقّ التالي من كلامي، وهو يؤكِّد هذا التَوَجُّه المكتفي بالتنظيم للصيام والصلاة في كنيستنا. فلو خطّطنا فعلاً للترفّع عن الشكل باتجاه تثمين القصد، لَكُنّا آثرنا التفتيش عن استمراريةٍ ما! لَكُنّا اعتبرنا أننا، صومًا بعد صوم، ننمو في المسيح، فتكون القيامة أفعل في حياتنا.

أين القيامة في البيعة؟

لكن القيامة كلام جميل وخدمة جميلة وفرحة عابرة. لا يزال من رَقَدَ في القبر (حتى لا نموت نحن) مائتاً في قلوبنا. الشكل طغى في التحضير كما في العيد!

لكن، أين تجدون معي القيامة في الجماعة اليوم؟ أفي طقوس للدفن ليس فيها مُعْطًى قياميٌّ واحدٌ؟ أفي إبقاء الفقير على فقره؟ أفي طمأنة الغني إلى رضى الله عنه؟ أفي كنيسة ترى في أملاكها ما هو أهمّ من رفع الظلم عن البائس والمسكين؟ أفي مؤسسات لا يجد فيها المحتاج خصوصية؟ أفي وعظ طوباوي لا ينفذ إلى حقيقة واقع المؤمنين؟ أفي غياب مواقف نبوية تجاه العالم والمجتمع؟ أفي تصرّف الأفراد الذين يسلكون كأهل الدنيا؟

بيض، وحلوى، والمسيح قام!

هل يمكننا أن نقول ذلك براحة ضمير لأطفال العراق ومهجَّري فلسطين ونازحي كوسوفو وأولياء من قُتِلوا من الصرب والسود في الولايات المتحدّة؟ هل نقول ذلك بصراحة في وجه أُمَمٍ تتكلّم على الحرية وتمنعها عن كل العالم؟ هل نسلك (كأشخاص وكجماعة) رافضين بشكل صريح وواضح أن تكون السيادة في العالم للمال وللَحْمِيَّة تُشَيِّئُ الإنسان إعلامًا وثقافة، باسم الحريّة والانفتاح؟

ألواقع الانفصامي

أم إننا وَقَعْنا، بسبب من مأسسة تتأكّلنا منذ زمن بعيد، في انفصام ليس بعده انفصام، فلا نجد اللَحْمِيَّة إلا في خطاب أخلاقي حول الوصايا العشر، وكأن الموعظة على الجبل لم تكن. أين السلوك المنسجم مع خطابنا القيامي، نسعى لنحياه أفرادًا وجماعات؟

لذلك فالصوم يأتي ويذهب... وموسم الفصح يأتي ويذهب... وكل منا في موقعه... أو ربما ازداد الغنيّ غنىً والفقير فقرًا والمتكبّر تكبرًا.

لكننا مرتاحون إلى جمودَ نعدّه تقوى!

أجل، فأخطر ما في هذه المأسسة للصوم والصلاة وفحوى القيامة (التي ليست عيدًا كباقي الأعياد الكَنَسِيّة) أننا ندافع عنها بحجّة التقوى.

مأسسة التقوى في الكنيسة

طبعًا، أنا لست ضدّ التقوى. لكنني أرفض بشدّة المماهاة القائمة بين التقوى وبين المحافظة على الأشكال الخارجية. ألله وحده فاحص القلوب والكلى. وليس لي، أو لأي فرد، أن ندين أخًا. لكن، أليست التقوى في الاستمرارية وفي التناغم بين الأفعال والأقوال؟ أية تقوى هذه التي تنتهي في موسم بانتظار موسم جديد؟

أليست التقوى في اعتماد الصوم أسلوب حياة، ولو انْتَظَم الإنسان، في فترة من الفترات، بترتيب كنسي مُعَيَّن؟ أليست التقوى في جعل الصلاة مُناخًا للحياة ولو اعْتَمَدَت في فترة من الفترات ترتيبًا جماعيًا محدَّدًا؟ أليست التقوى في أن يؤدي هذا وذاك إلى حياة تَرَفُّع عن لَحْمِيَّة تَشُدُّنا في طمع وحسد ونميمة وحبِّ مال وإهمال للغير؟

هل من تقوى دون فحص للنفس وقبول بنُصْح الآخرين؟ هل من تقوى دون اتّباعٍ لخطى السيّد الذي وَحَّد نفسه مع الفقراء والمظلومين؟ أليس هذا هو، بالنهاية، المعنى العميق للترتيب الكنسي الذي يضع إنجيل الدينونة في مطلع الصوم، في أحد مرفع اللحم؟ كيف لنا أن نُحَرِّك الجمود المتحفيّ الذي نحن فيه فنرتفع إلى مستوى الرسالة؟ كيف نذهب إلى أبعد من الشكل، ولو حافظنا عليه؟

ما نعرفُهُ اليوم في حياة الجماعة الكنسية هو متحفية صومٍ وصلاةٍ وقيامة. متحفية نرتاح لترتيبها المُتْقن ولوجهها المؤسّساتي. قولي هذا إدانة لنفسي وصرخة أُطْلِقها في كنيستي، حتى نستحق فعلاً أن نقول جهارًا وبثقة، لكل فقير ومعذّب ومضطهد: ألمسيح قام!

ألفصل الثّالث

أنْ نعيِّد، ميلاد على رجاء المسرّة والسلام

ألمدخل

في الفصل الثاني، وفي مجال التعرُّض لموضوع الصيام، تكلّمتُ على القيامة، فهي عيد الأعياد وموسم المواسم. لكن، حتى لا أتوقّف عند هذا الوجه الخاصّ، رأيت أن أطرح إشكالية "التعييد" في كنيستنا من وجهة نظر "المأسسة" مُتَّخِذًا عيد الميلاد نموذجًا.

في مزود أتى ليكون في العالم سلامٌ وللناس مسرّة. قال بالسلام لأنّ آدم الأوّل بسبب كبريائه أدخل إلى العالم البغضاءَ والتقاتل. وقال بالمسرّة لأن الخطيئة التي بها تمرّد الإنسان على الله، جعلت الإنسان عدوًّا لنفسه، ففقدت الإنسانية حسَّ الفرح الحقيقي القائم على التناغم بين الخلائق لا على السيطرة والتناحر. بشرى الملائكة في الميلاد هي بشرى إعادة التناغم في الكون، لأن تواضع الخالق يفتح المجال لتواضع المخلوقات، ولأن الصدع الذي دَخَل بآدم الأوّل زال بآدم الثاني الآتي في المزود.

هذه، باختصار شديد، فحوى التوجه الميلادي. هل له نُعَيِّد[1]؟

كيف لا والخُطَب في الكنائس تدور كلّها حول هذا الموضوع؟ فما من واعظ في كنيسة إلاّ ويؤكّد خصوصية الميلاد وعَظَمة التَجَسُّد وأمل الخلاص الآتي.

١- وقياسًا، هل يعبِّر أي احتفال نقيمه، عن الفحوى المسيحية للعيد الذي نحتفل به؟

كيف لا والزينة تملأُ أرجاءَ المخازن والطرق والبيوت، مذكِّرة بأن الخامس والعشرين من كانون الأوّل على الأبواب؟

كيف لا وكّل الدعايات هنا وهنالك تدعوك لتتذكّر "بابا نوال" الآتي بحلّته الحمراء ولحيته البيضاء ليعطي الأولادَ الهدايا، لأنّ العيد عيد "ميلاد"؟

كيف لا وكلّ فقير في الشارع سيعتبرها فرصة لاستعطاف أكبر؟

أليست هذه إعادة التناغم بأن نتذكّر هؤلاء الضعفاء مرّة في السنة (على الأقل)؟

كيف لا وكلّ محتاج في بيته سيحصل على بعض فتات موائد الأغنياء بواسطة المحبِّين المتبرّعين من كلّ جمعية خيرية على وجه الأرض؟

أليست هذه المسرّة أن نُدخل الفرحة إلى قلوبهم بلقمة في بطونَهم مرّةً في السنة (على الأقل)؟

ألعيد والذكرى

أستغلّ ذكرى الميلاد نموذجًا وقفةً للتذكّر، ساعيًا إلى تطارح موضوع بات يشكِّل في تاريخ المسيحية سؤال استفهام عن هويتها وعن انضباطيتها وعن ديناميتها. وهذا الطرح، رغم خصوصيّته، ينسحب عمليًا على كافة أوجه تعييدنا.

ألعيد والذكرى

التعييد ليس خصوصية مسيحية. عرفت كلّ الديانات قبل المسيحية "موسمية" ما، عُبِّر عنها بطقوس مختلفة. فكان التعييد يتمُّ لموسم زراعي معيَّن أو لاستحضار ظاهرة طبيعية محدَّدة أو لإرضاء إله يمثّل أحد عوامل الطبيعة... إلخ. فلقد عَيَّد الناس لفرعون ولموته السنوي في النيل فقيامته، وعيّدوا لإله الخصوبة في الربيع، وعيّدوا للشمس أو للقمر. لو قرأنا نصوص هذه المواسم لَدُهِشنا بجمالها ورقّتها وروعة أدائها. فهي كلّها،

دون استثناء، تجَمِّل الطروحات وتعطيك أسبابها الموجبة وتربطها بتوق الإنسان إلى المطلق وإلى ما هو فوق الإدراك. وكان البعض من هذه المناسبات أيضًا مجال كرم اجتماعي واحتفالات يتساوى فيها كبار القوم مع صغارهم، أغنياؤهم مع فقرائهم... لفترة احتفال ليس إلاّ!

أبقت الكنيسة على موسمية التَذَكُّر هذه منذ فجر تاريخها، وذهبت أبعد من ذلك. فقد اقتَبست بعضَ الأعياد القديمة الموروثة من الوثنية وحوّلتها معطية إيّاها معنىً جديدًا بالكليّة. هكذا حلّ عيد الميلاد محلّ عيد الشمس، لأن المولود هو الشمس الحقيقية، ولقد أشرف ليُنير الظلمات النابعة من ابتعاد الإنسانية عن الله، ويُدخِل إلى علاقات الإنسان بأخيه الإنسان، كما بالطبيعة كلِّها، الدفءَ الذي افتقدته مع دخول الخطيئة إلى الكون.

لكنّ الكنيسة لا تقتبس إلاّ الشكل، وهي تُغَيِّر الفحوى تغييرًا جذريًا، لأنّ الخطاب المسيحي هو أساسًا خطابٌ تجسُّدي وليس خطابًا وعظيًّا. فالشمس جامدة، مخلوقة، والتعييد لها هو بداعي الخوف حتى تُبقي على الدفءِ الناتج عن إشعاعاتها وكأنها تمتلك قدرة على تغييره. لكنّ الربّ المولود في المزود خالق، والتعييد لميلاده هو بداعي الشكر لأنّ الدفء أُعطي لنا به مجّانًا ولن يحجبه الربّ عن الإنسان أبدًا. والدفء الآتي من الشمس رهن بعوامل الطبيعة، أمّا الدفء الذي أتانا بالميلاد فهو متدفّق علينا بسخاء ويبقى للإنسان أن يتعرَّف إليه ويُفَعِّله في العالم.

فهل هذا عيدنا، وهل هذا تَذَكُّرنا، وهل هذه استمراريته فينا؟

ألذكرى بين الكلام والفعل

أسأل السؤال وفي زمن الميلاد تُطْلعنا الدعاية في الراديو على أن "بابا نوال" يتهيّأ للمجيء، والملصقات تتحفنا بجديد الهدايا والسهرات المرتقبة، والبيوت تتزيّن بالشجر والمغاور مؤذِنَةً باقتراب الاحتفال.

الكنيسة بدأت أيضًا طقوسها التحضيرية: فالصوم الميلادي في يومه الكذا، واستبدلنا الأودية في السحرية بالأودية الميلادية، وصرنا نردّد في كلّ سرٍّ شكر طروبارية الميلاد وقنداقه. كما أن مدارس الأحد تجهّز نفسها لكل أنواع الاحتفالات بالموسم: فالحفلات الميلادية قيد التحضير (ولن يغيب عنها البابا نوال المعهود)، وستوزَّع فيها الهدايا ليفرح الأطفال (أو ليس هذا العيد عيدهم؟). الجمعيات الخيرية أيضًا بدأت بدورها تحضِّر لـ "توزيعات" العيد. فالعائلات الفقيرة تعوّدت استقبال هذه العطاءات في المناسبة (لن نخيِّب آمالهم!).

هل يتضمَّن كلامي هذا شيئًا من الاستهجان؟ هل هو كلام مبطَّن؟ هل هو كلام "ملغوم" حسب التداول الشائع للكلمة؟ نعم، قارئي العزيز، أقول هذا والحزن يملأ قلبي لأنّه يصحّ فينا قول الربّ لشعبه في "العهد العتيق": قد سئمتُ تعييدكم وهجرتُ احتفالاتكم!

أسمح لنفسي أن أسأل المسيحي الأنطاكي البسيط: ألا تعتبر أنّ ما يجعل عيد الميلاد عيدًا هو الجوّ الذي توجده الشجرة والمغارة وبابا نوال الموزِّع للهدايا؟ هل فكَّرت يومًا بما يمكن أن يكون عليه العيد لو مُنِعت من وضع الشجرة والمغارة، ولو لم يصوِّر لك عالم الاستهلاك بابا نوال كضرورة قصوى لاستقامة رأيك؟ أليس عجيبًا برأيك أن يطغى هذا المظهر على كل احتفال عندنا؟ (أشكر الله على أنه لم يدخل بعدُ الأبنيةَ الكنسية، رغم أنه دخل الحفلات التي تنظّمها مختلف الرعايا).

ما هو بُعْد صومنا الميلادي وطقوسنا؟ كيف نعيش معًا ما نرتّله بجمال وبهاء في سَحَرية الميلاد متهلِّلين: إن إلهنا ليس كسائر الآلهة التي لها آذان ولا تسمع ولها أفواه ولا تتكلم؟ هل عطاؤنا الموسمي للفقراء هو الجواب؟ هل اعتبارنا العيد عيدَ الأولاد هو الجواب؟ هل خصوصيةٌ طقسيةٌ عابرة هي الجواب؟

أين الفرق بين عيد الشمس في الوثنية وعيد الميلاد في كنيستي؟ كيف أحيا في العالم الفرق بين دفء المخلوق ودفء الخالق الذي تُشَكِّل الكنيسةُ جسدَه؟ كيف أُقنِع

الفقير والحزين والمقهور في أي مكان في العالم بأنّ الخلاص أتى وأن كنيستي تحمله إليه؟

يمكن أن نعطي عن كل هذه التساؤلات أجوبة طوباوية أونظرية تكون من باب الهروب إلى الأمام عوضًا عن الغوص في عمق الطروحات المسيحية التجسُّدية، في عملية فحص للذات جِدّية على ضوء مستلزمات حياتنا في المسيح.

مأسسة الأعياد في الكنيسة

لا أدّعي طبعًا أن أكون صاحب الأجوبة، فالعملية تتطلّب أكثر من مجرّد طرح لتصوُّرات فرد. لكنّني سأكتفي هنا بلفت النظر إلى وجه من الأوجه التي، في اعتقادي، تساهم إلى حدٍّ بعيدٍ في خلق هذا التناقض الواضح بين فحوى الخطاب الكنسي وواقع الممارسات المختلفة. أرى أن المشكلة تكمن أساسًا في عامل المأسسة.

الأولوية بين الشكل والتجسيد

يطال هذا الأمر أوّلاً عبارة "عيد". فالعيد أصبح ذا بُعْدٍ نرجيسي بمعنى أنه يُشدّد على الفرد المعنيّ به وليس على علاقة الفرد بالآخرين كشخص خادم لهم[٢]. هذا صحيح في "الزمن العتيق" وليس في زمن الجِدَّة. أصبح التعييد مؤسّسة بحدّ ذاتها، تجترُّ نفسها سنة بعد سنة، وليس هو محطة ذكرى لفحص تقدُّم المسعى الخلاصي على ضوء خصوصية المناسبة[٣]. لذلك تفتِّش الجماعة المُحْتَفِلة بالعيد عن المظاهر الخارجية وتجعل منها طقوسًا جامدة:

٢- أو ليست هذه "موضة" أعياد ميلاد الأفراد، كما لو أنه مهمٌّ بحد ذاته في التأريخ للخلاص أن يكون أحدهم قد وُلِدَ في يوم ما وفي سنة ما؟

٣- لذلك يتذكّر المؤمن نفسه في عيد شفيعه (وليس في عيد ميلاده) ليفحص خدمته في الجماعة وإذا كان فعلاً صورة مجسّدة للقدّيس الذي يحمل اسمه.

ا- نصلّي. لكن هل نعي فعلاً خصوصية هذه الصلاة اليوم؟ لماذا ولأجل من؟ أم إنّ صلاتنا متحفية في الأداء وفي الفحوى؟ متى سنربط العيد بصلاة العيد؟!

ب- نصوم. لكن هل نعي فعلاً أبعاد هذا الصوم اليوم؟ لماذا ولأجل من؟ أم إنّ صومنا تَقَويّ يحصر علاقتنا بالله ببعدها العمودي ليس إلاّ؟ متى سنربط العيد بصوم العيد؟!

ج- نخدم. لكن هل نعي فعلاً حتمية استمرار المنحى الشهادي اليوم؟ لماذا ولأجل من؟ أم إنّ خدمتنا انتفاعيّة تَحُدُّها مصلحتنا بالزمن والمكان؟ متى سنربط العيد بالخدمة الشاهدة على أزلية العيد!

من السهولة بمكان أن نتفرّج مكتوفي الأيدي على هِجْرة الصلوات مُتَّهِمين الناس بالخِفّة، وعلى هِجْرة الأصوام متَّهِمين المؤمنين بالفتور الروحي، وعلى عدم المشاركة المالية متَّهِمين الناس بالبخل. الحقيقة أنَّ المسألة أبعد وأعمق من ذلك بكثير.

فالمأسسة في ظاهرة الأعياد والمواسم هي بالضبط طغيان الشكل على المضمون، وطغيان الظرفية على الاستمرارية.

لماذا قال الربّ للشعب اليهودي إنه قد سئم تعييدهم؟ أليس لأن الشكل طغى على الجوهر؟

لماذا فضَّل الربّ صلاة العشّار على صلاة الفرّيسي؟ أليس لأنه لا يهتّم بالحرف بل بالإنسان الذي من أجله وُجِد الحرف؟

مأسسة عيد الميلاد، وأنا أطرحها كظاهرة مميزَّة لهذا الانحراف في حياة المؤمنين وفي تعاطينا الكنسي معه، هي في قبولٍ ضمنيّ لكل هذه الأشكال على حساب جوهر يقف عند حدود الوعظ.

أين دفء الميلاد الذي نبشِّر به المسكونة؟ ألا يمرّ الدفء المزعوم بمِدْفأة في بيت كلّ فقير؟

الأسئلة الموجِعة

كيف نجرؤ على أن نرتل "المجد لله في العلى"، هو الذي جعل من المزود بيته ورفعه إلى حضن أبيه، وكنائسنا في العالم أجمع متاحف مليئة ذهبًا وتحفًا تتكلم على مجد باطل للمجموعة الاجتماعية التي نؤلِّف؟ أم إنّ الله بحاجة إلى هذا البهاء الذي من صنع أيدينا ليتمجّد[٤]؟

كيف نجرؤ على أن نقول إن الله أتى بالسلام على الأرض، ونحن نجعل من الطائفة بديلاً للكنيسة مقيمين بينه تعالى وبين الإنسان الآخر الذي هو قريبنا (شئنا أم أبينا) حواجز وهمية لا تمتّ إلى مصداقيتنا بصلة؟ أيُّ سلام هذا الذي نسكت فيه عن ظلم ونصافح الظالم؟ أم إنّ الكلام على هذه الأمور سياسة ونحن نترفع عنها؟

كيف نجرؤ على أن نبادر إلى الناس ببشارة الفرح وبابا نوال احتلَّ الصدارة فما عدنا نعرف بمن نبشر؟ قَبِلنا صامتين بطغيان عالم الاستهلاك على عيد الميلاد، وهل المأسسة غير ذلك؟

الخاتمة

حالة مأسَوِيَّة تتساوى فيها المسؤوليات. كلّنا في الكنيسة، دون استثناء، شركاء في ازدواجية الوضع القائم. وكلّنا مدعوّون إلى وعي هذه الحقيقة المرّة وإلى وقفة مع الضمير تُحَرِّرنا من الأنا الذي جعل التجسد حتميًّا. كفانا هروبًا إلى الأمام وتغاضيًا عن الشرخ القائم بيننا وبين حقيقة المزود، بين حياتنا وخطابنا، بين ملحاحية الإنجيل وواقع تجسيدنا له.

العيدُ، كلّ عيدٍ، عيدٌ إذا ما وقفنا فيه وقفة المحاسِب لأنفسنا، كجماعة وكأفراد، نسلِّط على حياتنا ضوء متطلِّبات الحياة مع المسيح. إذّاك نحرِّر العيدَ من المأسسة. عند

٤ قبل بالطيب يسكب على قدميه مرّة واحدة لأنّ الفقراء هم الذين سيرثون هذا بعد موته.

ذاك، وعند ذاك فقط، يمكن أن يكون لصلاتنا معنى، ولصومنا هدف، ولخدمتنا بُعد. وإلاّ، فسنبقى "نحاسًا يرنّ وصنجًا يطنّ" لأنّنا نكون قد افتقرنا إلى المحبة التي هي وحدها كفيلة بأن تؤهّلنا باستمرار لتخطّي خطر المأسسة فنرتفع إلى مستوى ما نتذكّر.

هل هذا اليوم قريب؟ ألله أعلم. وما ليس مستطاعًا عند الله مستطاع عند الناس.

ألفصل الرّابع

أن نتقدَّس، ألزواج نموذجًا

حالة[1]

ماهيّة الأسرار، هذا هو موضوع هذا الفصل. علاقة هذا الهدف بالعنوان هي بالضبط إشكاليّة هذا الطرح. فالأسرار قسم من حياة الجماعة وليست خاصّة بالأفراد الذين يتقبّلونها. وإني آخذ الزواج نموذجًا، لأنّه السرّ الذي ابتعد كثيرًا في الممارسة عن

١- أتى من وسط الجماعة التي التصق بها أحدًا بعد أحد، وموسِمًا بعد موسِم، معطيًا إياها الأولوية المطلقة على راحته وعلى عائلته. أتى من سَحَرٍ خَدَمَه والرفاقَ، ليلتقي على عتبة "الباب الفصحي" هبة الله له، فيدخل وإياها إلى البيعة عابرًا، بجلال، وملِكته درب محبة، ساعيًا إلى مزيد من التقديس. بعد أن أعلن مجد الرب في شعبه بمجدلة كبرى، استقبل الكلُّ "ملكة" تفرح بعريسها وتأتيه هبة إلهية ليستمر الجهاد. فيبارك الأسقف باسم المؤمنين قيام مملكة الله على اسم الآب والابن والروح القدس. هنا يتكلّل جهاد وهبة، في وسط مَن أحبّا. هنا في وسط من سيخدمان، ووسط من سيؤازرونهما في حياتهما التقديسية، وُضِع الإكليلان على هامتيهما. أكليل ستقول الخدمة مرارًا وتكرارًا إنه إكليل الشهداء، إكليل الشهود. ولئن تكلم الأدب العرسي عن أكاليل مجد، إلاّ أنه المجد الذي ينحدر من فوق، لأنه ثمرة جهاد فيأتي من الله هبة مجدٍ مجانية.
وقف العروسان في صحن الكنيسة. حاوطتهما الجماعة طيلة خدمة سر الشكر. فشكرا الله على وجودهما، وتضرع المؤمنون من أجل ثباتهما. فكانا أول من شرب من كأس الخلاص المقدَّمة للجميع حتى تسري في عروقهما النار التي ستحولهما، في نسيان متبادل للنفس، وتضحية حتى الموت، وانسحاق على الصليب، وحدة، كنيسة صغيرة، بيتًا إلهيًا. لم يقل النص الكتابي إنهما سيصيران لحمًا واحدًا. فاللحم لا يهم الله. لكنهما سيصبحان "جسدًا واحدًا"، أي إنهما سيدخلان في مسيرة التناغم بين شخصيهما، فلا قهر، ولا تسلط، ولا عناد، بل تماثل مع علاقة المسيح بالكنيسة، جسده، تمامًا كما جاء في الرسالة التي قُرِئت على مسامع الكل.

هدفه الأساسي، واتّسم بأكبر قدر من الفردية في حياة الجماعة اليومية. وما أوردت في الحاشية هو مدخل الفصل في شكله الأوّل (مجلّة النور، العدد الخامس، ١٩٩٨).

الجماعة المسيحية التي تتألّف شكريًّا، ويدخلها المؤمنون من خلال مثلث العماد والميرون والشكر، ليست تراصّ أفراد غرباء بعضهم عن بعض. ما نعيشه اليوم من "استقلالية" وروح فردية هو استقالة الجماعة عن دورها وجهل المؤمنين لأهميّة ارتباطهم بالجماعة حتى تقوم فعلاً حياتهم في المسيح. الحالة التي نحياها اليوم هي صورة كاريكاتورية عن ماهيّة الكنيسة وماهيّة التقديس فيها. فما نسمّيه أسرارًا أضحى مراسم فيها الكثير من الفولكلور وعبادة الأنا، ما أضفى عليها الصفة السحرية نظرًا لغياب الامتداد الحياتي لمسؤولية الجماعة عن الأشخاص ولغياب حاجة الأشخاص عن رعاية الجماعة. ولذلك نسأل عن المأسسة التي أدّت بنا إلى هذا الواقع المتناقض مع منطلقات النموّ في المسيح التي تشكّل الكنيسةُ إطارَهُ المثالي.

ثم طافا والاشبينين والكهنة، في رقصة فرح لم يغب عنها ذكر الشهداء ولا ذكر الربّ ووالدته. وبعد الطواف والدعاء يخرج الاثنان معًا ليجسّدا في حياة يومية ما نشأا على التمسك به، متّكلَيْن على الله وعلى الاخوة وعلى الكنيسة ككل لتقويهما في جهاد جديد وبهبة إلهية متجددة دومًا وأبدًا.

خرجا ليسمعا فرحة من أحبّا بهما، فرحة من ربّاهما، فرحة من تابعهما لسنوات طوال، فرحة تمدّ مائدة الرب إلى لقاء الأوجه، فرحة تمنى لهما الجميع أن تبقى حية في قلوبهما مهما تكن الصعاب ومهما تكن الظروف. هذه الفرحة لم تحتج لزينة غير زينة الإيقونات والشهداء والقديسين. فرحة عبّر عنها الجميع بمشاركة صلاتية وليس بثياب فخمة تعتبر غياب الحشمة ارتقاءً اجتماعيًا.

كيف سيُحفظ هذا اليوم في ذاكرتهما؟ لن يكونا بحاجة إلى أشرطة وأفلام. هذا اليوم هو في ذاكرة الرب وجماعته لأنه من زمن الصليب. ذاكرة هذا اليوم هي في تجديد عهد الخدمة التي "صُلِبا" عليها ومن أجلها. والصليب ليس حزنًا في كنيستنا المستقيمة الرأي. الصليب عندنا طريق القيامة وعنوان الفرح. ذاكرتهما هي الكنيسة التي تحملهما وتعضدهما، والتي يشهدان فيها وبوساطتها يومًا بعد يوم. ذاكرة كهذه أثبتُ من فيلم يتحكّم من أجله المصور بالصلاة وببيت العبادة وبالمصلين، لأنها أعادت إلى البيعة أصالة طالما افتقدتها.

فهنيئًا للجهاد بجهاد أتته من الله هبة الثبات رغم كل شيء. وهنيئا لهبة بجهاد أثمر لأنه ثبت بنعمة الله وبمخافته و لم يهاود. فجهاد استحقّ الهبة، ولولا هبة لما أثمر الجهاد. ألا قوّاهما الله ليستمرّا في ما أعطيا من مواهب، بتفان وتواضع وانسحاق.

عِبْرة

لا أشير إلى خدمة الشكر في الحاشية، والتي فيها تكلّل مؤمنان في رعيتي صدفة. أذكر الحادثة لأن من وراء الحادثة عبرة يهمني في مجال الكلام على "المأسسة والحياة الكنسية" أن انطلق منها وألفت النظر إلى ثلاثة أمور يمكن أن تشكّل محطّات لافتة في أساس الموضوع الذي يهمّنا هنا.

اندماج خدَمتَي الشكر والزواج

كتب الأسقف يوحنا (الحصن) أطروحته في اللاهوت حول هذا الموضوع. برهنت الأطروحة عن أصالة هذا الأمر وأهميته في الكنيسة. هذا الترتيب لم يعد استثنائيًّا لكنه شاع تدريجيًّا منذ أن حضَرْتُ أوّل خدمة من هذا النوع منذ ما يقارب الخمس والعشرين سنة. أهمّيّة هذا التدبير الطقسي تتعدّى الشكل لتطال جوهر العملية التقديسية: أعني مركزية الخدمة الشكرية في حياة الأشخاص والجماعة.

لن أدخل الآن في الإشكاليّة اللاهوتية، لكن يهمني، في مجال تسجيل الحدث وخصوصياته، أن أشدّد على الوحدة الأسرارية في مجال النموّ في المسيح، وعلى اعتبار المسيرة التقديسية هي مسيرة الجماعة ككلّ، وأنها تنطلق دومًا من الشكر وتصبّ فيه. فليس صحيحًا أن الشرطونية تتمّ في الخدمة الشكرية لأن المشرطَن سيقوم بوظيفةٍ كهنوتّية. خدمة "وضع الأيدي" هي الوحيدة التي حافظت على الترتيب القديم، والمفروض أن يستعاد هذا الترتيب في مختلف الخدم. لكن الموضوع هامّ أيضًا بالنسبة للعماد والميرون، كما أنه هامّ بالنسبة للتوبة ولو اتخذت خدمة التوبة شكلاً مختلفًا نظرًا لدقّة الموضوع[٢].

٢- ربما علينا أن نكتشف من جديد أهمّية ربط التوبة بشخص كاهن الرعية الذي يرأس سر الشكر، ونفكّ الارتباط بين التوبة والإرشاد الروحي الذي يأخذ شكلاً مختلفًا للغاية ويؤدّيه شيخ ليس بالضرورة كاهنًا.

زمن الخدمة

لكن ما استوقفني أكثر من ذلك هو إقامة الخدمة المذكورة في الخدمة الشكرية الأسبوعية يوم الأحد، في الرعية التي ستُصبح رعية العائلة الجديدة. وهذا خروج على المألوف للأسباب التالية:

أ- يعلن البيت الجديد الذي سيتأسّس إبّان هذه الخدمة أنه "كنيسة بيتية" نابعة من الكنيسة الجامعة المجسَّدة بالرعية. هذا إعلان عن نيّة الالتصاق بالرعية في المسعى التقديسي الذي هو السبب الأوّل والأخير لوجود الأسرار في الكنيسة. فالزواج مدرسة للحبّ بمعناه المطلق. وبقدر ما يسعى الزوجان ليكون هذا الحب أقرب إلى صورة علاقة المسيح بالكنيسة يكون الزواج أحد أساليب التمرّس على الحياة في المسيح. هذا المسعى التقديسي يتمّ على علم من الأخوة جميعًا وبمؤزارتهم لأن الجماعة هي التي ترعى العملية التقديسية.

ب- إقامة الخدمة في وسط الرعية هي أيضًا إعلانٌ ضمنيّ عن أن "خاصّة"الزوجين تتعدّى اللحم والدم لتطال الكنيسة كلّها. "من هم أخوتي؟"، ألم يكن هذا سؤال الربّ لمن لامَهُ على تصرفاته؟ خاصّةُ المؤمن رعيته لأنه معها وبها يرتفع إلى ملء قامة المسيح. لذلك وُجِّهت الدعوة في الأحد السابق للجميع حتى يشتركوا بالصلاة والفرحة.

ج- هذا إعلان أيضًا عن قبول الزوجين الكنيسةَ المجسَّدة في الرعية كمجال شهادة وخدمة وتمرّس على المحبّة والطاعة. لولا ذلك لاكتفى العروسان بالأقرباء والمعارف وأقاما خدمة خاصّة تحافظ على الشكل لكن تستغني عن الجوهر.

هذه الإيجابيات الثلاث قائمة حتى بالنسبة للعماد والميرون والدفن إلخ. ربما نُعِتَ هذا الكلام بالطوباويّ لأنه "نظريّ" وغير ممكن التطبيق. أنا أوافق على شِقّ من هذا الكلام لا عليه كلِّه. فهناك صعوبات جَمّة تتعلّق بتربيتنا الكنسية وبالأهلية الرعائية عندنا. لكن هذا لا يعني أن نستسلم ولا نفتّش في أعماق رؤيتنا للإنسان عن حلول لمشاكله. فمن الممكن تحدّي الواقع المرير والتغلّب عليه، ما يقودني إلى الأمر الثالث في العبرة.

الترتيبات الدنيوية

بعيدًا عن الجوهر اللاهوتي الذي تميّزت به الخدمة المدموجة مع الخدمة الشكرية في احتفال الرعية الفصحي الأسبوعي، استوقفني تحدّي العروسين للترتيبات الدنيوية. وأهمّ ما لفت انتباهي في هذا الموضوع ما يلي:

أ- غاب عن الخدمة هاجس التسجيل السمعبصري (video) الذي درجت عليه العادة حتى الآن وأصبح بأهمية الخدمة، إن لم نقل أهمّ. فلم يتحكّم المُصَوِّر لا بالخّدام وبالمواقع ولا بالأوقات. فحُفِظَت للخدمة "أسراريتها" وسُجِّلت على زمن الصليب حيث العروسان مدعّوان إلى أن يتخطّيا الزمن الآني ليدخلا زمن الخلاص.

ب- اكتفت عدسة المصوّر بلقطات عابرة أخذت في الخدمة أثناء "قدّاس الكلمة" و لم تَتَعدَّه إلى قّداس المؤمنين. فبعد البشارة والتعليم تغلق الرعية على نفسها أبواب الدنيا وتلتصق بربها "طارحة عنها كلّ همّ دنيوي". ففي السعي نحو القدسية خفر وأسرارّية لا يمكن أن تسجَّل بالعدسات مهما تطوَّرت التّقانة، فلماذا هذا التهافت المَرَضيّ عليها إذاً؟

ج- اعتبر العروسان أن بهاء كنيسة الرعية يكفيهما، وأن من شأن ظلال الإيقونات أن تؤمّن لهما الدفء الحقيقي. فجوار القديسين هو الجوار المرتجى. ألم يعوِّض جمال الجوق وفرح المشاركة عن غياب الزينة بما فيه الكفاية؟ ألم تغب أيضًا حسرة رؤية الكنيسة بعد العرس وكأن إعصارًا مرّ بها، لتهافت الحاضرين على ما فقراؤنا هم أكثر حاجة إلى ثمنه؟

د- حتَّم توقيت الخدمة على الحاضرين نوعًا معّينًا من الثياب، فكان بسيطًا، عاديًا ومحتشمًا. لمرة، لم تلتصق خدمة الزواج بمظاهر فحش ورفاهية تجعلنا نتساءل: ترى أين هو، ضمن هذه المجموعة، ذاك الذي وحّد نفسه مع الفقراء؟ تُرى هل يُقرأ لنا إنجيل الدينونة؟

٥- لم تتوقّف البساطة عند الحضور بل طالت العروسين أيضًا. فبثياب أنيقة عبّرا بنفس الوقت عن خصوصية المناسبة دون الوقوع في فخّ التناقض. ألم يكن الله وحده بالنهاية من وراء القصد؟

وهذا كلّه ينسحب أيضًا على باقي الخدم التقديسية التي ذكرتها سابقًا. هل جميع هذه الأمور مهمّة أم إنني أغالي؟ هل لهذا الموقف "المتزمّت" مبرر أم إنه في خانة الأصولية ورفض الحداثة والوقوف ضدّ التطوّر؟ ربّ قائل: لو وُجِد التسجيل السمعبصري في زمن المسيح لاستخدمه المسيح نفسه. طبعًا، وعلينا، نحن اليوم، أن نستعمله للبشارة حسب أصول لا بد من توضيحها. فالتبشير والإعلان شيء والحفاظ على خصوصية المسعى التقديسي شيء آخر.

هذا ما يقودني في القسم الأخير من هذا المقال إلى التساؤل حول التعليم عن الزواج خصوصًا كمدخل لكلام عامّ على إشكالية المأسسة في الكنيسة.

هل من تعليم؟

سبق وقلت إنّني أعني بكلمة "مأسسة" دخول شيء ما منطق "المؤسّسة" من حيث الاكتفاء بجماد التقنين والتنظيم وجعل الأمور تتّخذ صفة الرتابة والروتين بعيدًا عن الروح الذي يُحْيي. رأيت أن انطلق من حالة معّينة من باب تأكيد إمكانية التغيير متى شئنا ذلك فعلاً. فبالعودة إلى موضوع الزواج، ماعسانا نقول؟

أفهوم (concept) الزواج

إذا ما راجع أحدنا تاريخ الشعوب والحضارات رأى أن البُعد الدلالي للكلمة تغيَّر على مرّ العصور. عندما نتكلم على الزواج في فترة تاريخية معّينة لا يجوز أن نُسقِط على الكلمة خبرتنا اليوم في هذا الموضوع.

فالشرائع المختلفة والعادات القبلية والنظم الاجتماعية أوّلاً، ثمّ العلاقات الاقتصادية والاتّصالات السياسية ثانيًا، والمعطيات الحضارية حول حقوق الإنسان وحقوق المرأة وحقوق الطفل أخيرًا، هذه كلُّها أدخلت تدريجيًّا متغيّرات هامّة للغاية ألقت بثقلها على كثير من المفاهيم الحضارية. في نهاية هذا القرن، نحن نشهد تحوُّلات جديدة مردُّها الأساسي دخول "مؤسّسة" الزواج في مأزق إنسانيّ يعبِّر عن نفسه بطرق وأشكال مختلفة في العالم اليوم[٣].

ورثنا في المسيحية عن الزواج ما آلت إليه الحضارتان الإغريقية والرومانية اللتان حكمتا هذه البلاد، إلى جانب التأثُّر الأكيد بما ورد في العهد القديم عن الموضوع. ثم أتت الرسالة إلى أهل أفسس لتُدْخِل الدلالة المسيحية لكلمة "زواج" في طور جديد ومختلِفٍ تمامًا عن ما سبقه، إذ أصبحت صورة المسيح والكنيسة هي أيقونة الزواج. لكن، وباعتناق قسطنطين المسيحية وتنصُّر الناس "بالجملة"، دخل تدريجيًّا على الفكر المسيحي خطّان متوازيان: خطّ رهباني له من الموضوع مواقف متباينة، وخطّ حقوقي يعيدنا إلى المعطيات السابقة للمسيحية. فتأرجح الموقف اللاهوتي ولا يزال حتى الآن.

نجد آباءً كبارًا، أمثال يوحنّا الذهبي الفم، يرون في الزواج طريقًا للنموّ في المسيح، وينتهي بهم هذا التوجه إلى اعتماد مبدأ "الزواج الكنسي" بديلاً عن "الزواج في المدينة"، وإلى تأكيد ضرورة انتماء الزوجين إلى الكنيسة حتى يبقيا في الشركة. فكان من الطبيعي، إذ ذاك، أن تقام خدمة الزواج في إطار الخدمة الشكرية لِما للشكر من مركزية في الفكر المستقيم الرأي. لكن، من جهة أخرى، نجد نصوصًا رهبانية، كما عند الأب يوحنا السلّمي في "سلّم الفضائل"، تقيم ضمنًا مقارِنةً بين المتبتّل والمتزوّج، معتبرة الأوّل أقربَ إلى دخول الملكوت من الثاني. ونظرًا إلى غياب رعايةٍ للزواج متناغمةٍ مع الطرح

٣- يمكن أن يعود القارئ المهتمّ إلى سلسلة من المواضيع والإحصاءات الصادرة في كلّ أنحاء العالم حول كلّ ما يعود إلى الزواج والمساكنة والقوانين المنظِّمة لهما. وكلّ تغاضٍ عن هذه الحقائق الإنسانية هو هروب إلى الأمام بدل معالجة للأمور في العمق.

الأوّل، انتهى بنا الأمر اليوم إلى نصوص وترتيبات تضع للزواج شروطًا وموجِبات أشبه بالعقود بين شركاء، وإذا الفصل فيه لمحاكمَ "روحيّةٍ"، للمحامين فيها (من مؤمنين وغير مؤمنين) الدور الفاعل. فهل نستغرب أن تضيع هوية الزواج ونتعامل معه كـ "مؤسّسة" فقط، باتخاذه طابعًا فرديًّا؟

هذه هي الحال أيضًا بالنسبة للمعموديّة التي فقدت "حضورها" في الكنيسة فلا تمارس الكنيسة أي دور فعال في مجال التنشئة، وكذلك بالنسبة للميرون إذ لا يحيا المؤمن أيّ تفعيل لمواهبه ضمن جماعة الإخوة. وسأعود إلى هذا الموضوع لاحقًا في فصل الخدمة خصوصًا.

مَأْسَسَةُ الزواج

تتّخذ مأسسة الزواج اليوم أكثر من وجه. وهذه الوجوه تختلف أهّميةً ولو صبّت جميعها في جعل الصورة التعاقدية المؤسساتية تطغى على الصورة الإيمانية. سأتوقّف عند أوجه ثلاثة: الوجه الشكلي الكنسي، الوجه الاجتماعي والوجه الدنيوي.

١- في ما يعود للوجه الكنسي، الزواج ارتباط بين رجل وامرأة يتمتّع كل منهما، على حدة، بمعطيات موضوعية تجعله "قانونًا" أهلاً للزواج[٤]. هذه المعطيات، على أهميّتها، لا تمتّ بصلة إلى الخطاب المسيحي الأصيل عن الزواج، إنما هي مشابهة لأيّة معطيات في القوانين المدنية التي ترعى هذه العلاقة. غاب التوجيه والرأي، وغابت بعدهما المتابعة والمؤازرة. وأصبحت الخدمة احتفالاً "سِحْريًّا" لأن مفعولاتها التقديسية الأخرى قد تعطّلت تمامًا بسبب الاستغناء عن البيعة (وهنا تكمن أهمّية الحالة التي ذكرت في مطلع هذا المقال، ولو من باب الرمز على الأقل).

٤- هذه المعطيات منها القانونية (موضوع القربى و السنّ...) ومنها الصحّية (تطلبها الدولة) ومنها الكنسية البحتة (علاقة الميرون).

أسأل الكنيسة عن حلٍّ ما لم يكن لها إلا الدور الشكلي في ربطه. فغاب الإرشاد المحضِّر (خصوصًا في فترة الخطوبة)، واضمحلّت رعاية العائلات (خصوصًا في الفترة الأولى من الزواج)، وضاع دور الإشبينين اللذين أصبحا شاهدين قانونيين فقط. لكنّ المؤسَّسة باقية تشهد على عقم تطوُّر الحياة في الجماعة لتصل إلى قمّة الخطاب اللاهوتي. حتى الكلام على الجسد في الكنيسة لا يميِّز بين اللحم وبين "مسكن الروح القدس" الذي هو الجسد.

فهل الزواج شرعنةُ زنى (ألا تتكلّم القوانين الكنسية التي ترعى الزواج على "واجبات زوجيّة")؟ أم الزواج مسعًى تقديسيٌّ ضمن الجماعة، يحوّل العشقَ إلى حبّ المصلوب لكنيسته، جسدِهِ؟ مأْسستنا للزواج كنسيًّا هي بمثابة جواب سلبي، ضمني، عن السؤال الثاني!

ب- أمّا الوجه الاجتماعي الذي تَمَأْسس في الزواج فهو اتخاذه الطابَع الفردي تمامًا كما هو قائم في "زواج المدينة". الزوجان مدعوّان لتأليف خليّة مجتمعية ضمن أصول اللعبة القانونية من جهة الحقوق والواجبات والإرث وتقاسم الثروات. لا بدّ للكنيسة من أن تحترم هذا الوضع القائم. فالمؤسَّسة المدنية موجودة لتكون شؤونُ المدينة قائمةً "بلياقة وترتيب"، وهذا أمر صحّيّ لا بدّ منه.

لكن، كيف تتأقلم الكنيسة مع هذه المَأْسسة كما طوَّرها فكرها مدّةَ ألفي سنة؟ هل يعني ذلك أن كلمة زواج تأخذ اليوم دلالتين مختلفتين: إحداهما، وهي الأعمّ، تُماهي بين مختلف أشكال العقود التي تربط رجلاً بامرأة، والأخرى، وهي الأخصّ، تجعل من الزواج في الكنيسة أمرًا آخر بالكلّية؟ في هذه الحال كيف توصل الكنيسة خصوصية خطابها، وكيف تجعل من الزيجات في وسطها زيجات مختلفة فعلاً لا قولاً؟

ج- أمّا الوجه الثالث، وهو الوجه الدنيوي، فيعبِّر عن نفسه بـ "طقوس" خاصّة به يخلقها عالم الاستهلاك تحت ألف غطاء وغطاء. يصبح الأخذ بهذه الطقوس اتجاهًا الزاميًا لكلّ ذوي الشأن، وارتقاءً اجتماعيًّا لكلّ حديثي النعمة، وحفاظًا لماء الوجه لكلّ

المغلوبين على أمرهم من النمط الاستهلاكي وهم كثر. اللباسُ، والسياراتُ وكمّيّاتُ الزهور المتراكمة وكُل أساليب تخليد الذكرى بالتّقانة الحديثة، والحفلاتُ الصاخبة... كلُّها أمور تجعل من العرس ثقلاً على أهله، مؤسَّسة دنيوية لعبادة الذات. ألا يهرب البعض من هذا إلى "الخطيفة"؟...

يتّضح مّما سبق أنّنا ابتعدنا كلَّ البعد عن خصوصية أرادها لنا بولس الرسول وبعض كبار الآباء من بعده، و لم نصل إلى طروحات قابلة للحياة ضمن الجماعة المؤمنة تَحفظ الزواجَ من خطر المأسسة. ويمكن أن نقيم توازيًا مشابهًا إذا ما استعرضنا ما هو مرتبط بالمعموديّة. أما الميرون فقد غاب تمامًا عن الوعي، فلا يميّزه المؤمنون أثناء خدمة المعموديّة، كما لا يشعرون بوجوده في حياة الكنيسة لأن لا أحد يكلّمهم على مواهبهم ودورهم في تفعيلها داخل الجماعة ومن أجلها في العالم.

أخطار ناتجة عن المأسسة تتربّص بعالم اليوم

أمام هذا الواقع المأسَوِيّ يطرح الفكرُ الحديثُ على الكنيسة أسئلةً هي في غاية الخطورة، وتضع اللاهوتيين والرعاة في ارتباك حقيقي، لا يخفيه عمليًّا تكرار الخطاب النظري، ولا الحلول المجتزأة التي تُضطر الكنيسة إلى اعتمادها هنا وهنالك تدبيريًّا[٥]. أهمّ هذه الأسئلة، وربما كان هو السؤال الذي يختصرها جميعًا: ما هو الزواج الكنسي؟

أهو في إقامة الطقس في الكنيسة بانتماء العروسين للإيمان الواحد؟

أم هو في دخول العروسين مغامرة القداسة تحضيرًا وتبريكًا ورعاية في الجماعة؟

مشكلتنا اليوم ليست في الجواب النظري، فكلّنا متفقون عليه. مشكلتنا هي في

٥ بعض الكهنة في أوروبا يقبلون بمناولة أناس يساكنون من غير زواج.

معالجة واقع العائلات اليوم، بتحضيرهم وتحضير أنفسنا قبلهم لمواجهة مستلزمات الجواب المسيحي. أنا لا أرغب في تشكيك أحد أو إدخال الريبة إلى فكر الشباب. لكنني لا بدّ وأن أطمح إلى تَجاوُب الكنيسة مع ملحاحيّةٍ وجوديةٍ يطرحها عليها اليومَ العالم، لا لأنه ابتعد عن القيم الإنسانية بل لأنه دخل في خبرات جديدة بالكلّية. الموقف الوعظي والطوباوي لا يقدِّم حلولاً ناجعة. "تعالَ وانظر" قال الرب لنثنائيل. ماذا ننظر في الكنيسة من خصوصيةٍ للزواج؟ بماذا نردّ على أسئلة كهذه:

ما موقفنا من زوجين غير مؤمنين اهتدى أحدهما؟ وكيف يتماشى هذا الواقع مع الموقف النظري؟ هل لنا أن نستعيد تعليم بولس في هذه الحال ونعتبر أن "زواج المدينة" يكفينا؟ هل لنا، نظرًا إلى المعطيات الحضارية الجديدة، أن نعيد قراءة وصيَّة بولس عن تقديس الواحد للآخر في الزواج، عندما لا ينتميان إلى الجماعة؟ وماذا يكون موقف الجماعة من الفرد المؤمن في ثناء (couple) كهذا؟

ما موقفنا من مؤمنَين متزوّجَين في الكنيسة أَلْحَدَ أحدهما أو غيّر انتماءه الديني؟ كيف نتعامل مع الزواج في هذه الحال ومع كل من الزوجين، وأيّ دفاع نقدّم عن موقفنا؟ بمعنى آخر: هل من "زواج مختلط"، كيف وبأيّ معنى، وما موقف الفكر الكنسي منه؟ وكيف نقرأ التقليد المتراكم حول هذا الموضوع؟

ما موقفنا من تساؤل الشباب الكثيف عن الزواج وعدد الطلاقات أو عدد الزيجات التي هي بحكم المنتهية إنسانيًّا والمستمرّة اجتماعيًّا؟

ما العلاقة بين الحكم المدني والرؤية الكنسية؟ وما مدى إلزاميّة الزواج الكنسي إذا كان الأمر يتعدّى المأسسة، وذلك على ضوء كل المستجدّات الحضارية اليوم؟

من السهل طبعًا اعتبار كل هذه الأسئلة عَرَضيّة. لكن واقع الحال يدلّ على أنّها في غاية الأهميّة والواقعية، وهي تشكل إحدى أهمّ الأمور تداولاً في العالم، خصوصًا في أوساط الشباب. ألا تلفت نظرَنا الحلولُ البديلة التي تستنبطها العصرنة اليوم؟ هل يكفي أن نلقي عليها التّهم، أم علينا التفتيش عن مواقع ضعف عندنا لا بدّ وأن تهزّ مضاجعنا

حتى نأتي بالحلول؟ في اعتقادي أننا اليوم أمام تساؤلات سمح الله بها لنُخْرِج حياتَنا التقديسية من الرتابة التي أدخلتنا فيها المأسسة.

أملي أن تواجه الكنيسة (كلّ الكنيسة) الموضوع بكثير من الجدّيّة، وتهيّىء للمستقبل مستفيدة من خبرات الماضي الأليمة. هذه ورشة عمل للمؤمنين كافّة على مختلف الصعد. هل تدقّ أنطاكية ناقوس الخطر بجدّيّة وتبدأ برفع التحدّي؟ وشكري لكلّ شابّ وشابّة وكلّ عائلة فتيّة يتّخذون على عاتقهم كسر الطوق الذي يكبّلهم فيفتحون لنا المجال لطرح الموضوع بصدق وعمق. سيكون الطريق شاقًّا طبعًا لأنّ درب القداسة صعب. الطريق طويل لأنّ طرحًا كهذا اليوم ليس إلا بداية المخاض.

أمّا بعد

قلت، في مطلع هذا الفصل، إنّني أنطلق من الزواج نموذجًا لحياة التقديس. فكلامي ينسحب أيضًا، في قسم منه كبير، على ممارسة الأوجه التقديسية الأخرى، من معمودية وميرون ومسحة وتوبة وصلاة على الموتى ودخول الحياة الرهبانية... أكاد أقول أيضًا إنّ هذا ينطبق حتى على وضع الأيدي، لأن هذا الأمر تحوّل عمليًّا إلى عملية فردية بين الأسقف والمتقدّم لوضع الأيدي، وكأن الجماعة غير معنيّة بالخدمة الخاصّة التي يتقدّم إليها هذا الأخير.

هنا، أيضًا، كان للمأسسة تأثيرٌ مباشرٌ على أكثر من صعيد:

أ- أُفرِغ التقديس من معناه "الوجودي" فأصبح عادة لا بدّ منها (مثل المعمودية)، ذات طابع دنيوي، أو غير مُدْرَكة عمليًّا كالميرون أو المسحة.

ب- أخذ العمل التقديسي بعدًا فرديًا عوض أن يبقى مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالجماعة، فقُطِع الرباط بينه وبينها، فابتعدت هذه الأعمال عن محورية الشكر الذي يفترض أن يكون في وسطها. وقد وقعت بعض الأعمال التقديسية في ما يشبه النسيان

تقريبًا، كالمصالحة (أو ما اعتدنا على تسميته سرّ الاعتراف) لأنها اعتُبِرت عملية فردية بين المعترِف والكاهن الذي خسر هكذا دوره كوسيط الجماعة في عملية المصالحة.

ج- طغى الشكل الأدائي على الفحوى في أحيان أخرى، وإذا بالعمل التقديسيّ يصبح، كما في الزواج، حادثةً دنيوية ليس إلاّ.

الخاتمة

لا يسعني، في آخر هذا الفصل، إلاّ أن أوجّه نداء ملحًّا لكلّ لاهوتيّي أنطاكية حتى يواجهوا المأسسة الفكرية المتربّصة بكلّ ما هو مرتبط بحياة التقديس في الجماعة، فنخرج من المفهوم الحقوقي للأسرار لندخل في مغامرة التقديس الأسرارية.

ألفصل الخامس

أن نخدم

أمحبّة بين الغنائية والواقع

"بطرس، أتحبُّني؟... إرْعَ خرافي." (يوحنّا ٢١:١٥-١٧)

"أحبّوا بعضكم بعضًا. بهذا يعرف العالم أنكم تلاميذي!" (يوحنّا ١٣:٣٤-٣٥)

"انظروا كم يحبّون بعضُهم بعضًا."

تدلّ هذه العبارات التي وردت على لسان السيّد وفي سفر الأعمال على أنّ المحبّة بالنسبة لنا نحن المسيحيين تتعدّى الواجب الإنساني المحض لتطال تكويننا بالذات. هذا طبيعي ربما، والمقولة ليست جديدة. لكن، وفي معرض الكلام على المأسسة، وددت التوقّف عند هذه العبارات لألفت النظر إلى أمر بسيط للغاية من حيث الشكل، لكنّه ذو تأثير عميق من حيث الجوهر، ألا وهو الوجه "الإجرائي" للمحبّة.

فالمحبّة تُعَرِّف بالمسيحيّين من جهة، وهي أساس تحرُّكهم في العالم من جهة ثانية: بها نُحَدِّد ذواتنا كجماعة، ومنها ننطلق في عملنا حسب وصية السيّد. بمعنى آخر، المحبّةُ ليست محبّةً إن هي اقتصرت على غنائية تكتفي بوصف مزايا المحبّة وتشيد بأهمّيتها. المحبّة حركيّة (dynamique) بحدّ ذاتها، وإن لم تكن كذلك فهي غير قائمة.

إشكاليّة النوايا والفعل

قال أحدهم: "الجحيم مليء بالنوايا الحسنة". والمقصود بهذا الكلام أنّ المحبّة التي

تكتفي بالنوايا و لا تتعدّاها إلى الفعل، ليست المحبّة التي تكلّم عليها السيّد وصُلِب بسببها كي يعطينا صورة واضحة عن ماهيّتها. فلو لم يُصلَب المسيح ليُبطِل مفعولَ الموت بقيامته الملازمة لفعل الصلب، لما كان لإيماننا أساس. المحبّة التي تجلّت على الصليب هي التي قهرت الموت وأعادت للإنسان الثقة بالله وبنفسه. إنتهى عهد البغض الذي نتج من الخطيئة، بانتصار المحبّة في عمليّة العطاء الأكمل. لذلك فنحن معشر المسيحيين لا خيار لنا: فإمّا أن نعبّر بالأفعال عن كوننا محبّين كيانيًّا، أو تسقط أمام الله هويّتنا المسحية، ولن يغيّر في شيء كلامٌ طوباويّ على المحبّة نشنّف به آذانَ الجائعين والمظلومين والمقهورين في هذا العالم.

ألخدمة تجسيد للمحبّة في الواقع المعيوش

فالخروج من التناقض بين النيّة (المعبَّر عنها كلاميًّا) والواقع المعيوش (الذي تشهد لنا به حياتنا اليوميّة) يكون بالتفتيش عن كيفيّة الابتعاد عن التناقض هذا بغية تجاوزه نهائيًّا. في هذا المجال يأتي الحديث عن الخدمة. فالخدمة ليست هدفًا بحدّ ذاتها (أتحبُّني يا بطرس؟... إرْعَ خرافي!)، إنما هي الوسيلة التي أعطانا إيّاها السيّد لنُخرِج المحبّة إلى حيّز الوجود. هذا يعني، في ما يعنيه اليوم، إعادة نظر جذريّة لمفهومنا للخدمة في البيعة أوّلاً ولمفهوم خدمة البيعة في العالم ثانيًا. فلا يمكن أن تبقى الخدمة، في حقيقتها المعيوشة، على تضادّ مع تعاليم السيّد عن المحبّة، وعن عيشه هو للمحبّة، كون الأهمّ في رسالة السيّد عيشه إيّاها وليس فقط الكلام عليها.

ألخدمة وأوجهها الثلاثة

عرفت الكنيسة، منذ البدء، تنوّعًا في الخدم. لا يذكر الكتاب المقدّس تصنيفًا لهذه الخدم بالشكل الذي نسعى لإيجاده اليوم، بتوصيف للمهامّ وتصنيفها درجاتٍ على حسب المسؤولية. لكن، رغم ذلك، ما ورد في الكتاب المقدّس يسمح لنا بتصوّر ثلاثة

أوجه للخدمة تتكامل وتصبّ كلّها في ماهيّة الكهنوت الملوكي الذي للكنيسة ككلّ. تأخذ هذه الخدم أهمّيتها من خصوصية كلّ منها وعلاقتها بعضها ببعض على ضوء ما هو مطلوب من الكنيسة كمسؤولة عن مدّ بشرى الخلاص في العالم: أي إن المحبّة حصلت وأضحينا في زمن النور بعد أن سطع نور القيامة من عتمة القبر. الخدم، على تنوّعها وتكاملها، هي التي تعطي هذا الكلام معنى. فإن فَسُدَ ملح الخدم فلن يكون هناك طعمٌ لمذاق المسيحية... ونكون قد وقعنا في مَأْسسة الخدمة على حساب عمل الروح من خلالها. لذلك، وإن كان هناك من كلام على خدم متنوّعة، لكن ليس هذا من أجل استقلالية في الخدم، بل من أجل اللياقة والترتيب. في اعتقادي أنّه بإمكاننا الكلام على ثلاثة أوجه لخدمة الكنيسة وللخدمة في الكنيسة: الخدم الخاصّة وخدمة الفقير وخدمة العالم.

الخدم الخاصّة

الخدم الخاصّة في الكنيسة هي الأعمال التي يقوم بها الأفراد في الجماعة المؤمنة تجسيدًا للمواهب التي أعطاهم إيّاها الروح. ربما كان بولس الرسول، في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس، هو أفصح من تكلّم على هذا الموضوع عندما أعطى عن الكنيسة صورة الجسد والأعضاء، ليوضح الخدم المواهبية في الجماعة. عندما أراد الرسول أن يوضح فكرة التكامل هذه قصد أن يساوي في الأهميّة بين عمل الرأس وعمل الأذن وعمل اليد، لأنّه ما من عضو في الجسد يمكن أن يحلّ محلّ العضو الآخر. وهكذا أيضًا في الكنيسة: لكلّ عضو دور، وما من أفضليّة لعضوٍ على آخر إلاّ بمقدار ما يوظّف هذه المواهب. فإن كان للرأس خمس وزنات، فعليه أن يردّ خمس وزنات أخر في يوم الحساب... وإن كان للرِجْل وزنة، فعليها أن تردّ وزنة يوم الحساب. لا يمكن للرأس أن يلغي دور الرجل ويمنعها من أداء واجبها، ولا يمكنه أن يجيّر لنفسه وزنة الرجل. كذلك الرجل، فلها أن تعي قيمة تثمير وزنتها، ولا تعيق الرأس في مسؤوليته عن توظيف وزناته الخمس.

أما التوافق والتناغم بين الأعضاء فنأخذهما من الروح القدس العامل في الجسد الإلهي الذي هو نحن اليوم في العالم: فيكون لنا، في كلّ خدمته، فكر المسيح وتواضع المسيح وغيرة المسيح على كَرْم أبيه.

السؤال اليوم في الكنيسة: أين هي المواهب؟ أين هي الخدم النابعة منها والمجسِّدة لحقيقتها؟ هل نُحْيِي فعلاً في الكنيسة سرَّ الميرون المقدَّس الذي به نستلم المواهب المقدَّسة لنشعّ بها في الكنيسة وفي العالم؟ أنا أعلم طبعًا، وكلّنا يشعر أنّ هذا التوجّه المواهبي غاب عن حياة الكنيسة. فهل هذا بسبب مَأْسسةٍ ما؟

خدمة الفقير

أسسّ الربُّ نفسُه الوجهَ الثاني لخدمة الكنيسة، عندما أعطى مَثَل يوم الدينونة. هذه هي مرجعية محبّة الجماعة والأفراد للسيّد: الاعتناء بالفقراء. فبقدر ما الخدم الخاصّة مهمّة لبناء الجسد الواحد المسؤول عن العملية الخلاصية في العالم، تشكّل خدمة الفقير المحكّ الوحيد لترجمة المحبّة: الجائع والعطشان والمحبوس والعريان والمشرَّد... هم السيّد نفسه!

خطير هذا الكلام وخطيرة أبعاده (أو ربّما موجِعة). من السهل نعت أيّ كلام في هذا المجال بالطوباويّة والأوتوبيّة .(utopique) من الأرجح أن يفضَّل عليه كلام حول الفعاليّة (Efficacité) والمردوديّة (rentabilité) والعلميّة (Scientificité) لأنها، مجتمعةً، تضمن استقامة خدمة الفقير فتُحْفظ كرامته، و تؤمّن توزيع الطاقات بشكل هادف، وتحقّق فعاليّة النتيجة. هذا أيضًا صحيح... لكن... هل تركت المأسسة مجالاً لإقامة رباط ولو ضئيل جدًّا بين إنجيل الدينونة وتنظيم خدمة الفقير على هذا الوجه؟ أم إن المأسسة اكتفت بهذه ونسيت ذاك؟

فإن سألنا مثلاً عن توظيف الأوقاف!

أو عن أولويةٍ في ما يشاد من أبنية عبادة شامخة، ومؤسّسات اجتماعية، ومؤسّسات تربوية!

أو عن صدارة الفقير في أيّ من الهيئات العاملة في كنيستنا!

أو عن قلق نُثيره في أنفسنا وفي أنفس المتموّلين على مصير الفقراء والمعذَّبين ومسؤوليّتنا عنهم!

أو عن افتقار نجازف به ومظاهر نتخلّى عنها حتى يبقى بهاء الربّ وحده بهاءً مرجواً نلتمسه أوّلاً في أوجه عطاش وجياع ومشرَّدين!

منذ فجر المسيحية نبّه الرسول يعقوب إلى مكانة الفقراء، ليس فقط في اجتماعات البيعة، بل وخصوصًا في توجُّهنا نحوهم! نُفِيَ الذهبيّ الفم لأنه تجرّأ على أن يفاتِح الأمبرطور بشأن مسؤوليته عنهم! أمّا باسيليوس الكبير فلم يترك لنا الخيار، معتبرًا أنّ كلّ من احتفظ بثوب في خزانته سارق!

أليومَ تنتصب المأسسة وتأثير العالم على حياتنا وطرق تفكيرنا والتمظهر في تصرفاتنا، حاجزًا منيعًا بين إنجيل الدينونة وواقعنا.

خدمة العالم

أخيرًا، بقوله "إذهبوا وبشِّروا كلّ الأمم معمِّدين إيّاهم على اسم الآب والابن والروح القدس" أعطانا الربّ الوجه الثالث لخدمة الكنيسة، ألا وهو أن تكون كاهن العالم، فتترجم الكهنوت الملوكي الذي تكلّم عليه الأنبياء، مسعًى الزاميًّا للتبشير بعهد جديد يقطعه الله على نفسه تجاه الإنسانية.

أن تكون الكنيسة خادمة للعالم، وأن يسعى كلّ منّا ليجعل من هذه الخدمة حقيقة في مضمار وجوده، ليس ترفًا نختار الالتزام به متى رأينا ذلك مناسبًا. هذا من كنه الكنيسة وهو ملازم لمسيحيتنا. أليس هذا أن "نكون في العالم" عالمين تمامًا "أننا لسنا من

العالم"؟ فنحن ننتمي إلى عالم آخر من حيث المنطلقات التي تُحرّكنا والمرجعيّات التي نسترشد بها والمسالك التي نتّبعها. لكننا في العالم كخميرة مدعوة لتُغيِّر العجين بأكمله. يقول باسيليوس الكبير: "إن عشت وحدي فأَرْجُلَ مَنْ أغسل؟". الكنيسة غاسلة أرجل أو ليست الكنيسة: هذا هو، في آخر المطاف، معنى غسل السيّد أرجلَ التلاميذ.

"تعال وانظر!" هل نقول هذا، اليومَ، بجرأة لمن نريده أن يتعرّف إلى المسيح؟ أم إن المأسسة عندنا طغت على أوجه كانت تعطي الكنيسةَ خصوصيةً ما؟ عندما دعا اندراوس نثنائيل بهذه الكلمات، قال له السيد: "الحقّ أقول لك، من الآن فصاعدًا سترى ملائكة السماء ...". هل الكنيسة اليوم سلَّم يعقوب الناقلة إلى السماء بخدمتها في العالم؟

أسأل هذه الأسئلة لأنني مقتنع بأننا لن نشاهد جمال الخدر إلاّ إذا كانت لنا جرأة النظرة النقدية فننفض غبارًا (أسمّيه مأسسة) عن وجه العروس البهيّة.

مأسسة الخدمة وطغيان التّنظيم

انطلاقًا مما سبق، ألج موضوع بعض ظواهر المأسسة في الخدمة عَرْضًا وتحليلاً، علمًا أن ما أقول هو مجرَّد رأي شخصيّ يدعو إلى كثير من النقد والنقاش بغية الوصول إلى قناعات مشتركة تسمح لنا بولوج تغيير يعيد للخدمة في الكنيسة دورها المتشعِّب.

مركزيّة سرّ الشكر

كنت في حديث، منذ زمن بعيد، مع أحد كبار أساقفة الكنيسة، وهو المتروبوليت أنطوني (بلوم)، حول عنوان لمؤتمر يجتمع فيه الشباب الأرثوذكسي من كلّ حدب وصوب. كنّا نتداول العنوان "الكنيسة جماعة شكرية". بعد صمت طويل، قال لي سيادته: "أتمنى لو أنّ العنوان لا يقتصر على هذا. فنحن في الكنيسة الأرثوذكسية مجرَّبون

بسبب ذلك. نحن نشكو من الإفراط بالكلام في هذا الاتجاه. صحيح أن الكنيسة جماعة شكرية، لكنه صحيح أيضًا وبنفس القيمة أنها جماعة مواهبية، وأنها جماعة كتابية. أنظروا ألاّ تسلّطوا الأضواء على وجه من الأوجه على حساب الوجهين الآخرين. فالتشديد على الكنيسة كجماعة شكرية سيعطي، لا محال، مكانة أرفع في الجماعة لخدّام سر الشكر من حيث الوظيفة وليس من حيث دور الوظيفة!"

منذ ذلك الحين وأنا أتأمّل هذا الكلام الذي دوّنته حينها حرفيًّا. واليوم إذ أسترجعه محلّلاً وضعنا الكنسي، ووضع الخدم الخاصّة فيه، أرى كم كان رأي هذا الأب الروحي ثاقبًا. لن أسترجع هنا ما كتبه الأب أفناسياف[1] في هذا المجال ولا الأسقف يوحنا (ذيذيولاس)[2]، لكن يهمّني فقط تأكيد أنّ دور الأسقف في سرّ الشكر هو نتيجة موهبة خاصّة أدّت إلى خدمة خاصّة. هذه الخدمة محوريّة في الجماعة لأنّ سرّ الشكر مركزيّ في حياة الكنيسة الأسرارية[3]. لذلك لا يستقيم النظر إلى المرتبة الأسقفية وعلاقتها مع الخدم الباقية إلا من خلال هذه الرؤية التكاملية.

أما نحن اليوم، وبسبب من مأسسةٍ ما للتنظيم الكنسي، مأسسةٍ لا تخلو من تأثير غربي لِهَرَميّة حلّت مكان الدائرية (concentrique)، ومن تأثير عالمي لطاعةٍ عسكريةٍ حلّت مكان الشورى الرعائية، فلقد فقدنا الإحساس التامّ بخصوصية كلّ خدمة في الكنيسة، فاختصر الأسقف (عمليًّا وليس نظريًّا) كلّ المواهب بشخصه، وأصبحت كلّ الخدم امتدادًا للخدمة الأسقفية وليست متممة لها.

وأتت الأنظمة الكنسية منذ مطلع القرن العشرين[4] لتُدْخِل على الموضوع مزيدًا من الضبابية. فاستبدلت عمليًّا مجالس الشورى الأسقفية (presbyterium) بمجالس ملّية

١- يمكن مراجعة كتاب الأب نقولا أفناسياف "كنيسة الروح القدس" الصادر عن منشورات النور.
٢- يمكن مراجعة كتاب الأسقف يوحنّا "L'être Ecclésial".
٣- من المفيد هنا استرجاع كتابات الأب ديونيسوس الأريوباجي عن الخدم الكهنوتية.
٤- يمكن هنا مراجعة تجربة الكنيسة الروسية في مطلع القرن العشرين في تنظيم المجالس.

(أو رعائية حتى) هي منتديات لأصحاب النفوذ والمتموّلين والوجهاء في الطائفة أو القرية أو المحلّة. وكان من الطبيعي أن يدور خلاف جوهري حول دور هذه المجالس وعلاقتها بالأسقف وعلاقتها بالكاهن، لأنها لا ترتبط فعلاً بالخدمة الكنسية كرؤية، بل هي مجالس إدارة لعمل تقوم به مؤسّسة قائمة في مكان ما، وفي ظلّ نظام ما.

على سبيل المثال لا الحصر، قال نظام سنة ١٩٧٣ إن الكاهن هو رئيس مجلس الرعية. أتى تعديل أُدْخِل مؤخَّرًا ليقول إن الأسقف هو رئيس كافة مجالس الرعايا. لا بدّ وأنّ لآباء المجمع أسبابهم الهامّة في اعتماد هذا التغيير. ومهما كان السبب، تبقى النتيجة هي هي: واقعنا يلغي دور الكاهن القيادي في الرعية. لماذا؟ ومهما كان الجواب: أهذا طبيعي؟ ومهما كان الجواب: ما الأمر الذي يحتاج إلى إعادة نظر؟ رأيي أنّ مأسسة سرّ الشكر التي خلطت بين وظيفة خدمته ودور خدمته في الكنيسة، هي السبب. نسينا الدور على حساب الوظيفة، فحلّ، بسبب من ضعفاتنا، التسلّط مكان المحبة، و لم يبق في الكنيسة مجال لأيّة خدمة أخرى.

ألمواهبيّة

تقع على كاهل الأسقف، من حيث هو خادم سرّ الشكر، أثقل الخدم: فهو مدبّر عمل الكنيسة في أبرشيته، وله أن يلتقط المواهب ويوزّعها، موظّفًا إيّاها بمحبّة وتفانٍ وتواضع حسب حاجات الجماعة. عمل الأسقف هذا ينبع من سرّ الشكر الذي يجمع الإخوة، ويكتمل بتفعيل عمل الروح في الأشخاص وفي الجماعة، فيما الأسقف يشرف مع مجلسه على كلّ الخدم "قاطعًا باستقامة كلمة الحقّ".

هكذا يكون الأسقف عامل توحيد حسب قول القدّيس إغناطيوس الأنطاكي: "حيث يكون الأسقف هناك تكون الكنيسة". هذا النوع من الخدمة هو الذي يجعل خدمة الأسقف خدمة مركزية. فالجغرافيا ليست همَّ القدّيس إغناطيوس! ويأتي السؤال: أين هي المواهب اليوم؟ أين دور الجماعة في التعرف إليها؟ أين دور الجماعة في تفعيلها؟

طبعًا، عدَّدَ بولس الرسول في رسائله بعض المواهب، وتكلّم بإسهاب على بعض منها (كالنبوّة والألسن). عرفت الكنيسة الأولى تفعيل البعض منها (حتى القرن الرابع خصوصًا)، وقد أتى ذكر البعض منها في أعمال الرسل. لكن نحن اليوم بحاجة إلى كثير من التواضع لاسترجاع معاني هذه المواهب كخدم خاصّة في الكنيسة، حتى ولو اعتدنا إلى اليوم عكس ذلك.

هل من موهبة للشموسية (التي لم تُربَط بشخص الأسقف في الكتاب المقدس)؟ ما هي وكيف نتعرّف إليها؟ ربما تكون المأسسة في التنظيم الكنسي هي التي حوّلت الشموسية إلى "منزلة بين منزليتين" رابطة إياها بملازمة الأسقف قبيل الانتقال إلى الخدمة الكهنوتية.

هل من موهبة للقسوسية (التي لا يوضح الكتاب المقدّس، بشكل كاف، الفرق بينها وبين المشيخة من جهة وبينها وبين الأسقفية من جهة أخرى)؟ ما هي وكيف نتعرف إليها على ضوء تاريخ الكنيسة وأوضاع الأبرشيات حاليًّا؟ المأسسة في الكنيسة سلخت الكاهن عن رعيته من حيث الانتقاء والرعاية والمتابعة...كما أفقدتنا وضوح الرؤية حول وضع الكاهن العائلي ونوعية علاقته مع الرعية ومع المؤسسات الكنسية وحتى مع الأسقف كشخص ومع الأسقفية كخدمة. وهذا يفتح المجال لعدد كبير من الأسئلة التي يطرحها المؤمنون بخفر... ثم يخضعون لمأسسة اتخذت اسم "تقليد".

هل من موهبة تعليم في الكنيسة لا تتعارض مع موهبة الأسقف كحافظ للتعليم؟ ما هي وكيف نتعرف إليها وكيف ننميها ونغذّيها في الجماعة؟ المأسسة في الكنيسة جعلت التعليم "مدارس أحد" ليس إلاّ! الشعب المؤمن عطشان لكلمة يأخذها من "معلّم" يتوجّه في آن واحد لعقله وإيمانه. لكن سأعرّج في مقال لاحق على موضوع التعليم بإسهاب.

هل من موهبة نبوءة في الكنيسة تعلن إرادة الله، داعية إلى فحص النفس على ضوء الإعلان الإلهي، وذلك تحت عين الأسقف الساهرة وبالاحتكام إلى الجماعةِ المؤمنةِ

حافظةِ الإيمان؟ ما هي وكيف نتعرّف إليها ونحترمها؟ المأسسة في الكنيسة ألغت النبوءة وكأنّ التنظيم الكنسي لم يعد بحاجة إلى من يسلّط الضوء على أوضاعه مذكّرًا المؤمنين بحدّة الإنجيل.

هل من موهبة "طقسية" في الكنيسة تساعد المؤمنين على أداء طقوسهم وتساهم في جعل هذه الطقوس محبَّبة وهادفة في آن؟ ما هي وكيف نتعرّف إليها وكيف نشذِّبها حتى لا تطغى على مشاركة المؤمنين في الأداء الطقسي؟ المأسسة في الكنيسة هي التي جمَّدت الأداء وأقامت حاجزًا مصطنعًا بين الصلاة والطقس، كما أوضحْتُ ذلك في الفصل المخصَّص للصلاة وحياة التقديس.

هل من مواهب أخرى علينا أن نكتشفها وننميها لم تُذكر سابقًا، لكن عمل الروح المستمرّ فينا يدعونا إلى اكتشافها؟ ما هي؟ ما هي حقولها؟ ما هي ضرورتها؟ ما هو مدى ارتباطها بالمواهب الأخرى؟

هل من خدم خاصّة جديدة مطروحة اليوم على ضمير الكنيسة تؤدّيها "مؤسسات" تابعة للكنيسة، من مستوصفات ومستشفيات ومآوي ومياتم ومدارس وجامعات ومراكز تأهيل ومصانع؟ ماذا عن هويّتها؟ مذا عن المواهب المطلوبة من العاملين فيها؟ ماذا عن نوعيّة ارتباطها بخدمة الكنيسة للفقراء وبخدمتها التبشيرية؟

أولوية الشهادة للمسيح

ربّ قائلٌ بعد كل هذا، إن هذا الكلام كلام خارج عن التاريخ. فعصرنا عصر تقانة، عصر اختصاص، عصر امتهان. كلّ من لا يلج هذا المنهج مصيره الفشل. أقول لصاحب الكلام إنه على حقّ. فلا بدّ لنا في الكنيسة اليوم أن نعطي للمواهب أساليب عمل تسمح لها بفعّالية أكبر. لكن علينا أن نجد الموهبة أوّلاً.

ربما كان من مشاكلنا اليوم أننا اعتبرنا أن التأهيل التقني لوظيفة ما يسمح لنا

باستبدال الموهبة بهذه التقانة. الواقع ينفي هذه المقولة ليس فقط في الكنيسة بل أيضًا في مجال العمل العادي، فكم بالحريّ في جماعة تدّعي أنّها من "نوع آخر"؟

الأولوية في الكنيسة هي للشهادة للمسيح. فالأسقف والكاهن والشمّاس والنبي والمعلّم والمرتّل والمتفوّه ومدير المؤسسة التابعة للكنيسة... جميعهم أوّلاً وآخرًا شهود للمسيح. فاكتساب تقانة ما للقيام بخدمة ما هو تفعيل للموهبة وليس بديلاً عنها. واختصار كلّ المواهب بشخص واحد واعتماد التقانة عند المنفِّذين هما مناقضان لمنطق الفعّالية الدنيوية كما لفحوى الرسالة الإنجيلية. فكيف الخروج من واقعنا الأليم الذي يتّسم بالتناقض بين المبدأ والسلوك، خدمة لشهادتنا للرب؟

الخدمة نتاج انتماء

في اعتقادي أنه لا بدّ من وقفة جدّية نستشفّ منها، بتواضع، مدى تطابق واقعنا مع المنطلقات الحياتية التي أوصى بها الربّ، وسار على ضوئها كبار القدّيسين. لذلك، وانطلاقًا من الأسئلة التي طرحت في ما سبق، لا بدّ من أن نصدّق القول في أمرين أساسيين: روح الخدمة والبعد المواهبي للجسم الكنسي.

أين انعكاس روح الخدمة بين المؤمنين؟

روح الخدمة، كما الصلاة والصوم، مُناخ وليست تنظيمًا. فأين "روح الخدمة" في عمل المؤمنين وفي عمل الكنيسة تجاه العالم؟ كيف نربّي على روح الخدمة وأين؟ أين تسطع روح الخدمة في رعايانا ومؤسّساتنا ومواقفنا من المال؟

كلّ تربية تقوم على اختبار وعيش "بالعمل" (en-acte). ما هي المجالات المفتوحة أمام المؤمنين، من مختلف الأعمار، من مختلف الفئات الاجتماعية، من مختلف المستويات العلمية، لاختبار الخدمة في الكنيسة و لإختبار خدمة الكنيسة في العالم؟ حلّ المال تمامًا

مكان روح الخدمة. أنا لا أدّعي أنّ روح الخدمة متلازمة مع العمل التطوعي. لكنني لا أقول أيضًا إنّ العمل لا يقوم إلاّ إذا رُبِط بالمال بشكل عضوي وحصري. هناك تجارب في العالم تدلّ على عكس ذلك. وعلى كل حال، ولو لم يكن الأمر كذلك في أيّ من بقاع الأرض، من قال إنه ممنوع علينا في أنطاكية أن نحلم بخطٍّ تقليد جديد في هذا العصر الحاضر نرفض فيه تسلُّط المال ونعطيه القدر الذي يستحقه في إجرائية الأمور ليس إلاّ؟ كما أنّ الصلاة ليست فقط بترداد الكلام الطقسي وفق تنظيم جامد، والصوم ليس فقط بالامتناع عن المأكولات موسميًا، كذلك لا تُختَصَر روح الخدمة بوظيفة ومهامّ وأفراد.

روح الخدمة الشاهدة للروح العامل فينا هي جوّ من الالتزام والتفاني يعيشه المؤمنون وتعيشه الجماعة في آن. وهذا يعني أن هناك جماعة وأشخاصًا وعملاً جدّيًا دؤوبًا يبتغي الوصول إلى الهدف الأوحد ألا وهو إيصال بشرى المحبّة إلى العالم.

ضرورة اعادة اكتشاف معنى تركيب الكنيسة كجسد مواهبي

من هنا أنطلق إلى الشقّ الثاني ممّا أعتقده ضروريًا للخروج من "المأزق" الحالي الذي تعيشه الكنيسة (علمًا أنّني واعٍ تمامًا أن الكثيرين لا يشاطرونني الرأي بوجود المأزق). الكنيسة مجموعة أشخاص مواهبيين يتكاملون، ليس فقط بسبب الكأس المشتركة، بل أيضًا بسبب تكامل خدماتهم (المرتبطة بمواهبهم)، واكتسابهم الفكر الواحد ("أما نحن فلنا فكر المسيح" على حدّ قول الرسول بولس).

اكتساب الفكر الواحد يأتي بالتعليم (وهذا ما سأتكلّم عليه لاحقًا في مقال خاصّ). أمّا تكامل الخدم فيأتي من القناعة بأنّ المواهب موجودة وأنّ الأسقف مع مستشاريه مسؤولون عن التقاطها واحترامها وتوظيفها. وكلّ مؤمن مسؤول عن إظهار مواهبه وعن المطالبة بتفعيلها بالخدمة وعن الاستجابة للأسقف وللجماعة عند استدعائه للخدمة التي تناسب مواهبه.

هذا يعني إقامة نوعيّةٍ جديدة من العلاقات ضمن الجسم الكنسي، ومفهومٍ جديد لدور الجسم الكنسي في العالم. فالكنيسة ليست منظّمة عالمية تقاس بمعايير العالم، لا داخليًّا ولا خارجيًّا. هنا تكمن الصعوبة أساسًا. وربما كان الطريق الأفضل لولوج إعادة النظر هذه، هو السعي للتعرّف إلى العلاقات المدعوّة إلى أن تشكّل خصوصية الكنيسة بما ليست هي (approche apophatique).

فالطاعة في الكنيسة هي غير الطاعة في ثكنة عسكرية. الطاعة في الكنيسة هي طاعة للمسيح ولكلّ من يطيع المسيح، كلّ حسب موقع خدمته.

الصدارة في الكنيسة ليست كالصدارة في التنظيم الدنيوي. الصدارة ليست لذوي النفوذ أو الوجاهة أو المال، بل هي لكلّ فقير ومعذَّب ومشرَّد.

الأوّل في الكنيسة ليس كالأوّل في المنتديات الدنيوية. الأوّل في الكنيسة، باستثناء خدمته الطقسية كرئيس لسرّ الشكر، هو كالسيّد ليس له مكان يسند إليه رأسه.

الخادم في الكنيسة أو الخادم كنسيًّا ليس كالموظَّف في مؤسّسة دنيوية. المال الذي يستحقّه هو أجر الساعة الأولى كما أجر الساعة الحادية عشرة... المال لا يحدّه ولا يعطيه كرامة أخذها أساسًا من السيّد بالمعمودية وسرّ الميرون.

المال في الكنيسة ليس كالمال في الدنيا. المال في الدنيا يتسلّط ويَسْتَعْبِد، أمّا المال في الكنيسة فهو ليَخْدُم ويُطَوَّع.

الخاتمة

الخدمة من منطلق كنسي ليست كالوظيفة في الدنيا. فمن يعمل "كنسيًّا" يعتبر خدمته، أينما حلّ، امتدادًا لخدمة الربّ، فلا استكبار ولا محاسبة ولا تسلّط، بل وداعة وتضحية وانفتاح. هذا يعني، في ما يعنيه، أن الخادم الذي يربط خدمته بحسّه الكنسي، مدعوّ لكثير من اليقظة حتى لا يُسْتَضْعَف و يُساء فهم مواقفه، بل يكون

جاهزًا في أيّ وقت من الأوقات ليدافع عن الرجاء الذي فيه والذي يحرّكه. وهذا يعني أيضًا وخصوصًا أنّ الجماعة كلّها مدعوّة لدعم هذه التوجّهات الشخصية ضمنها وخارجها، فتعطي هكذا للعالم شهادة خصوصيّتها في فهم الخدمة.

نحن كهنوت ملوكي، إن فهمنا أن خدمتنا في الكنيسة وفي العالم هي خدمة الكاهن الأوحد التي تجلّت في أعظم بيان على الصليب. فكلّ خدمة صلبٌ وقيامةٌ في آن: صلب عن ضعفاتنا وقيامة بالمحبّة التي تسكن فينا.

تحجيمنا لهذه الرؤية بالمأسسة التي تتأكّلنا، أفسد طعمَ خصوصيةٍ، العالم و بأشدّ الحاجة إليها. ألا قوّانا الله لنسعى مجدّدًا ودائمًا إلى إظهار وجه السيّد في كلّ أعمالنا.

ألفصل السادس

أنْ لا نُشْرِك في اللّه[1]

ألله والمال

"أنا الربّ إلهك، لن يكون لك إله غيري". (خروج ٢٠:٢ و٣ وتثنية ٥:٦ و٧)

"لا تعبدوا ربَّين: ألله والمال". (متّى ٦:٢٤ و لوقا ١٦:١٣)

"أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله". (متّى ٢٢:٢١)

"إن أردت أن تكون كاملاً، فاذهب وبع كل ما لك ووزعه على الفقراء وتعال اتبعني". (متّى ١٩:٢١)

"أيها الأحمق، هذه الليلة تؤخذ نفسك منك، فهذه التي ادخرت لمن تكون؟" (لوقا ١٢:٢٠)

"وكان كل شيء بينهم مشتركًا". (أعمال الرسل ٢:٤٤)

... وكان التلاميذ يّوزعونها على المحتاجين.

يقول بعض المفكرين الغربيين، في قراءتهم حادثةَ السّقوط في العهد القديم، إن الله غضب على آدم وحوّاء لأنهما طلبا المعرفة. هذه قراءة مجتزأة للحادثةِ الكتابية وتفسيرِ الكنيسة الشرقية لها. مشكلة الإنسان أنه طلب المعرفة بالاستغناء عن الله عشيره في

١- العنوان الأساسي لهذا الفصل كان: "**ألله والمال في الكنيسة**".

الفردوس، فكان له ما أراد بسبب حريته، فكانت خطيئته الكبرياء. أتى المال ليغذّي هذه النَزعة عند الإنسان، فاعتبره السيّد في بشارته الخلاصية الصنمَ الأساس الذي يُدْخِل الإنسان في الشِرْك، فقال: لا تعبدوا ربّين: ألله والمال. ومن هنا عنوان هذا الفصل. الكمال لن يكون إلاّ لمن استطاع أن يترفّع عن المال بشكل نهائي ليستطيع أن يكون من جديد عشير الله وعشير الله وحده.

ليس من فذلكة حول التعاطي مع المال: هو لخدمة الإنسان في حياته وليس العكس، لذلك يُعْطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله. ليس من تبرير لادّخار المال خشية من المستقبل، لأنّ الله يهتمّ بزهور الحقل وبطيور البرّية، وهذه التي تكدّس لمن تكون؟ عملية الاستغناء عن الله هي عملية الابتعاد عن الآخر، عن كلّ آخر، كما يتّضح من تاريخ الإنسانية المتغرّبة عن ربّها... لذلك، ففي استعادة للوضع الفردوسي، كان كل شيء بين الإخوة في المسيحية الأولى مشتركًا، وكان التلاميذ يوزّعون على كل واحد حسب حاجاته. وهذه كانت الشهادة التي طالب بها السيّد أتباعه: "أحبّوا بعضُكم بعضًا، بهذا يعرف العالم أنّكم تلاميذي".

إشكالية التملّك

هذا الكلام يطرح علينا، بشكل مباشر، إشكالية التملّك بالنسبة إلى المسيحيين ككلّ. كيف نتجاوب مع هذه الدعوة الصريحة إلى الفقر التي يغصّ بها العهد الجديد، دون أن نرفض بشكل صريح مبدأ التملّك، أو ما نسمّيه في قاموسنا الحديث "الملكية الخاصّة"؟

واجه بولس الرسول الموضوع منذ فجر المسيحية، فقال إنه علينا أن "نملك وكأننا لا نملك". لكن لم يكن عند بولس هاجس الدخول في هذه التفاصيل، فالله كلّفه التبشير، فلم يشر إلى أكثر من ذلك في تعاليمه. أما باقي الرسل فقد عاشوا في ظل الشركوية التي ذكرت، والواردة صراحة في أعمال الرسل، كترجمة حيّة لدعوة الربّ

إيّاهم إلى الافتقار الطوعيّ سعيًا نحو الكمال. بل أكثر من ذلك، فقد رفض الرسل التعامل المالي في ما يتعلّق بحياة الكنيسة الداخلية، كما تظهر حادثة الرسول بطرس مع سيمون السّاحر الذي أراد أن يشتري الأسرار. كما نبّه أيضًا الرسولُ يعقوب إلى خطر إعطاء الصدارة للمتمولين في المحافل الكنسية، وكأنه، منذ ألفي سنة، يدْرِك كيف أن هذا المنافس للألوهة، أي المال، سيسعى من جديد ليخلق شرخٍ في الجماعة المؤمنة حتى لو كان ذلك باسم العطاء والكرم.

أما كبار الآباء فقد تركوا لنا مآثر هامّة حول التملّك والمال والتعامل به من أجل الخدمة. ويمكن الرجوع هنا إلى كتابات يوحنا الذهبي الفم وباسيليوس الكبير وحياتهما، كما ذكرت في فصل سابق. كذلك عندنا في حياة كبار الرهبان والقدّيسين والمبشّرين أمثلة عدّة على ماهيّة التعامل بالمال وما عساها أن تكون فحوى كلام الرسول بولس: "نملك وكأننا لا نملك!".

ألكنيسة "الشخص"

قد يُفهَم من الكلام أنّ المعنيّ بالأمر هو فقط شخص الإنسان المسيحي. هو المعني بالفقر والغنى، بالتملّك أو الاستغناء، بعبادة المال أو عبادة الله. في اعتقادي أن كل مسيحي معنيّ مباشرة بالموضوع، وأن لا حياة في المسيح دون فحص مستمرٍّ للنفس حول ماهيّة تعامل كلّ منّا مع صنم المال. لكن هذا يشكِّل فقط نصف حقيقة الإعلان الإلهي.

الكنيسة ليست هيئة دنيوية ولو عاشت في العالم. لذلك فهي ليست منظّمة من منظّمات الدنيا ولو اتخذت شكلاً من أشكال الوجود في العالم. وهي ليست تنظيمًا دنيويًّا ولو أعطت لنفسها قواعد تعامل تشابه العالم. الكنيسة جسد المسيح وهي حضوره في العالم. لذلك، فمن حيث هي وحدة، هي شخص، وينطبق عليها كلّ ما ينطبق على الأشخاص الذين يؤلّفونها. بل أكثر من ذلك. الكنيسة مدعوة لتكون عروس سيّدها. لذلك فهي الصورة التي بتصرّفها تربّي أعضاءها على كيف يرتقون إلى

المثال عريسها. وكما سأوضح في الفصل اللاحق، فليس من تنشئة للمؤمنين من دون عيش للمقولة التعليمية. من هنا أن الكنيسة ككلّ معنيّة مباشرة بإشكالية المال ليس فقط كمُلْهمة للمؤمنين، بل أيضًا وخصوصًا كمثل يحتذى في موضوع اختبار مقولة بولس لنا: "نملك وكأننا لا نملك".

ألمال الوسيلة

في اعتقادي أن المفتاح في هذا المجال هو في مثل "السامري الشفوق". أعطى الرب هذا المثل جوابًا على سؤال من له العِلْم، وقد حفظ الوصايا منذ صغره: من هوقريبي؟ أي من أُحِبّ؟ من أَخدم؟ وكيف أَخدم؟... يتلخّص المثل بما يلي: كل إنسان على طريقي هو قريبي، وما عندي من مال هو لخدمته. أجل، لم يكتفِ السامري بتضميد جراح من تعدّى اللصوصُ عليه، بل أخذه إلى الفندق وترك مالاً لمساعدته، على أن يدفع المزيد عند عودته إذا لزم الأمر. فالتضحية بالمال هي برهان المحبة التي تجعل من كل من تجد على طريقك قريبًا لك، أي مصبَّ محبّتك ومسؤوليتك، وذلك دون حساب: لم يضع السامري سقفًا لمحبته و لم يُعطِ رقمًا يحدّ من تقدمته.

نملك وكأننا لا نملك عندما نصبح مستعدّين لنتعامل مع المال بهذه الطريقة بالذات: المال الذي يسمح الله بأن يكون بين أيدينا هو مجرَّد وديعة قد ائتُمِنّا عليها، وهي لنخدم بها القريبَ دون حدود. هذه المحبّة هي المصالحة مع الآخر، ومع الله الذي يوحّد نفسه بالآخر، كما يتّضح من إنجيل الدينونة في أحد مرفع اللحم. بهذه المصالحة نلج إلى المعرفة التي هي دخول في سرّ الله، سرّ المحبّة، وليست تكديس العلم والمعلومة.

المشكلة مع الفكر الغربي (حتى في شقّه اللاهوتي أحيانًا) هي أنه غالباً ما يقرأ المسيحية من خلال الفلسفة، فلا يدخل في مغامرة الانجيلي يوحنّا بتغيير أبعادها[٢].

٢- عندما استعمل مثلاً عبارة "الكلمة" لإعطائها مدلولاً لاهوتيًّا جديدًا.

فبقيت المحبة مجرّد مرجعيّة أخلاقية، والمال وسيلة تعامل تجاري، والمعرفة الإنسانية محدودة في ظواهر الأشياء. ونظرًا إلى طغيان هذا الفكر في العالم المسيحي، واستقالة المشارقة من تحدّي الدنيا بأصالة المسيحية التي هم شهودها في العالم، نجد أنفسنا، وعن حقّ، في قفص الاتّهام لتحويلنا الكنيسة إلى هيئة متعاملة مع المال كغيرها من الهيئات الدنيوية، غير قادرة على أن تؤدّي الشهادة المطلوبة منها حتى تجاه أعضائها. لذلك تشكّل قضية المال وجه المأسسة الأكثر خطرًا على الكنيسة في علاقتها مع ربها، من هنا العنوان الأساسي لهذا المقال: "الله والمال في الكنيسة" (مجلة النور، العدد ٣، ٢٠٠٠) لمن الغلبة فيها اليوم؟ للأول سببِ وجودها؟ أم للثاني سببِ عبوديتها للدنيوية؟ جوابنا على هذه الأسئلة حسب قلب الله والتزامنا به كأسلوب حياة هما اللذان يجنّباننا خطر الشِّرْك.

ألمال وأسس التعامل معه

لكن، وقبل الإجابة على هذه الأسئلة، سأسعى لمعالجة الموضوع على ثلاثة أصعدة متكاملة، ألا وهي التعامل مع المال على صعيد الخدمة الخاصّة، وصعيد الخدمة البشارية، وصعيد الخدمة التي تأخذ بعدًا مؤسساتيًّا.

ألخدمة الخاصة

أقصد بذلك الخدمةَ التي تُقَدَّم للأفراد، وما اصطلحنا على تسميته في الأوساط الكنسية "الخدمة الاجتماعية". وهي تأخذ شكلاً منظَّمًا في كنائسنا من خلال لجان رعائية ومستوصفات، وهي موجَّهة أساسًا للفقراء. وقد اعتدنا في كنائسنا المختلفة اليوم على اعتبار أعمال اللجان الرعائية (حتى ولو قامت بها جمعيات "خيرية") مقتصرة على أبناء الرعية، بينما عمل المستوصفات مفتوح للجميع مهما اختلفت انتماءاتهم الدينية.

يقول المثل الشعبي "الحجرة بتسند خابية". هذا العمل مشكور مهما تكن محدوديتُه وعلميةُ شكله ودقّةُ أدائه. الحاجات كبيرة جدًّا، لذلك لا بدّ من الاعتراف بأنّ هذه

الأعمال هامّة بحدّ نفسها، وتشكّل فسحة أمل لكلّ محتاج في الجماعة. لذلك، ما سأسوق الآن هو في سبيل دعمه وليس في سبيل الانتقاص من أهّميته.

السؤال الأوّل الذي يتبادر لذهن المؤمن في الكنيسة اليوم هو عن حجم هذا العمل بالنظر إلى الطاقات الكنسية. هل درسنا يومًا على ضوء أعمال الرسل مثلاً ميزانيات مجالس الرعايا أو وكالات الأوقاف أو اللجان الرعائية المختلفة؟ أيّة نسبة من مداخيل الكنيسة "توضع عند أقدام الرسل لتوزّع على الجميع، كلٌّ حسب حاجاته"؟ حتى ولو اعتبرنا ضربًا من ضروب الوهم المطالبةُ بأن يشترك المؤمنون بأموالهم لتوزّع بهذه الطريقة، هل يكون كثيرًا أن تكون نِسَب ما يخصَّص للفقراء عالية وعالية جدًا؟ أليس مأسسةً للكنيسة أن يُنفَق القسم الأكبر من عطاءات المؤمنين على الشكل عوض أن يُنفَق على خدمة الفقراء[٣]؟

السؤال الثاني الذي لا بدّ أن يطرح أيضًا هو حول محدودية هذه الخدمة. من قال إن الحاجة تتوقف عند حدود الأكل والشرب والطبابة؟ ما هي مشاريع الكنيسة لمسح الحاجات الأخرى من صحّة نفسية، وتعليم، وتثقيف اجتماعي، ومواكبة إنسانية، وتأمين دفء، في خضمّ الفردية القائمة؟ فقراء اليوم ليسوا فقط المفتقرين إلى المال ليأكلوا ويشربوا، بل هم أيضًا من يجعلهم الوضع المادّي الصعب فقراء إلى ما يساعدهم على عيش إنسانيتهم بأكمل وجه. أليس مأسسة للكنيسة أن يقتصر عمل الرحمة فيها على هذا القليل القليل من أوجه الخدمة؟

السؤال الملّح الثالث هو حول مسؤولية الجماعة المؤمنة ككلّ عن هذا الموضوع. فلَئِن اتّخذ الشقّ التنفيذي طابع التّقانة والاختصاص– وهذا أمر طبيعي وضروري– إلاّ أنّ المسؤولية هي مسؤولية جماعية. أين الشراكة في هذه العملية؟ ليس صحيحًا أن من

٣– من المؤسف أننا لا نملك المعطيات الكاملة عن ميزانيات دقيقة حول هذه المواضيع. لكن بعض الأمثلة التي اطّلعت عليها تسمح لي بطرح الموضوع على هذا الشكل المأسويّ.

المفروض على المؤمنين أن يعطوا ويتبرّعوا عندما يطلب منهم ذلك. هذه هي المأسسة بعينها. الشراكة، أو الجماعية في الكنيسة، كلٌّ متماسك. المؤمن متبرّع، بل معطٍ من ضرورياته إذا لزم الأمر، بقدر ما هو مشارك في قرارات الصرف ووضع الأولويات وتشخيص الحاجات. اقتصر أمر المشاركة في الكنيسة اليوم على لجان وجمعيات "متخصّصة" (أو تدّعي ذلك)، تعمل مع الكاهن أحيانًا وتتجاهله أحيانًا أخرى، تنسِّق مع الأسقف أحيانًا وتتجاهله أحيانًا أخرى، كما اقتصر على إعلام شكليّ يراعي الجماهيرية أكثر ممّا يراعي النوعية وضرورة بناء جسد المسيح على المحبّة والمسؤولية المشتركة والتناغم في العمل.

لذلك، فإنَّ هذا العمل، رغم أهميَّته، يقع أسيرَ مأسسة تحدّه من حيث الرؤية ومن حيث الطاقات ومن حيث النوعية. لكن الأخطر من ذلك أننا، من حيث ندري أو لا ندري، نكون قد أشركنا في حبّنا لله ولعباده.

خدمة البشارة

أقصد هنا تسخير المال في الكنيسة لمدِّ البشارة بالسيِّد. عودة إلى الموازنات والميزانيات، وهي التي تعبّر عن وجهة استعمال المال في الكنيسة، نجد أن ما يخصَّص للبشارة قليل وقليل جدًا، ناهيك بالنوعيّة. وقد عالجت هذا الموضوع في المقال السابق[٤]. فقد اقتصر الهمّ البشاري عمليًّا على النشرات الرعائية، وبعض الكتب الطقسية، وبعض الكتب التي تتناول مواضيع تعليمية محدَّدة، كل ذلك بكلفة ضئيلة جدًّا. الأسئلة هنا كثيرة وكثيرة جدًّا. لن آتي طبعًا على ذكرها كلِّها. لكن لا بدّ من أن أعرِّج على أهمّها.

أين نحن من دور الإعلام في البشارة، وما هو الكَمُّ من المال الذي نخصّصه لهذا

٤- انظر المأسسة ٦، النور ٢٠٠٠، العدد الأوّل

الغرض؟ المأسسة التي أشكو منها حصرت إعلامنا بالقنوات "الرسمية" أو القنوات المعتمدة في الدنيا اليوم. خلافًا لأسرارية الطقس نجعل من الخِدَم موضوعًا إعلاميًا، ومن المناسبات الدينية مدخلاً لنقل طروحاتنا. لن أتوقّف هنا عند الفحوى والمناسبة، لكن فقط عند اختصار هاجسنا الإعلامي إلى هذا الشكل، وذلك بسبب عدم توفّر المال.

أين نحن من القضايا الكبيرة التي يطرحها العالم اليوم على ضمير الكنيسة (من حيث الأخلاقيات، أو من حيث طغيان الاستهلاك على الإنسان، أو من حيث غسل الدماغ الإعلامي إلخ ...)؟ وما هو الكَمُّ من المال الذي أمّنّاه للبحث عن إجابات تتوافق والبشارة المسيحية؟ المأسسة هي في أننا حصرنا تعليمنا بترداد العموميات الموروثة، واعتبرنا الوعظ الظرفي بديلاً عن بلورة فكر جماعي على ضوء الإنجيل والحوار بين الإخوة والاطّلاع على الفكر العالمي. فالكنيسة المستقيمة الرأي تؤمن بحرية أبناء الله وبالتفاعل الذي يشكّل ضميرَ الكنيسة على امتداد السنين. ماذا فعلنا في هذا المجال؟ أيّة طاقات مالية وضعنا بتصرف الإخوة لخلق هذه التيارات التي عليها أن تحاكي العالم برصانة يوحنّا اللاهوتي وحذاقته؟ تقريبًا لا شيء... وذلك بسبب عدم توافر المال.

أين نحن من قضايا مجتمعنا المباشرة أي التي تواجه من نعايش (مشكلة الحرّيّات، مشكلة البطالة والتعليم، مشكلة المشاركة في صياغة القرار الوطني)؟ وما هو الكَمُّ من المال الذي سخّرناه لباحثين مختصّين يستطيعون مساعدة من نعايش يوميًّا على تخطّي مآسيهم؟ المأسسة هي في أننا حصرنا البشارة بيسوع المسيح كمؤسِّس للمسيحية، وأدخلناه في فئويةٍ مِن صُنْعِنا، وما عدنا نرى فيه مخلِّصَ البشرية ككلّ، هذا الذي سيرسل الروح المعزي، هذا الروح الذي "يهبّ حيث يشاء". لكن هذه أمور مكلفة والمال غير متوفّر.

طبعًا كيف للمال أن يكون متوفّرًا ونحن لم نتوقّف يومًا للبحث بجدّية عن إمكانية تأمينه إلاّ بطلب التبرّع؟ كيف للمال أن يكون متوفّرًا بغياب خطط لصرفه في

الأولويات التي تخدم البشارة؟ كيف للمال أن يكون متوفّرًا في غياب أيّ تخطيط للمسؤوليات التي تقع، في عالم اليوم، على عاتق الكنيسة؟

الخدمة المؤسساتية

الصعيد الثالث والأخير هو صعيد الخدمة التي تقدّمها مؤسّسات تملكها الكنيسة. من حيث التاريخ، دخلت الكنيسة الأنطاكيّة هذا المجال في القرن التاسع عشر أي منذ أقل من مئتي سنة. طبعًا هذا ليس بالقليل، لكن ولوج الكنيسة الأنطاكية هذا المجال كان تحت ضغط الهجمة الغربية على الكنيسة المستقيمة الرأي، ولم تكن هذه الأخيرة قد أعدّت العدّة الفكرية القائمة على خصوصيتها في هذا المجال. فسلكت الكنيسة المشرقية مسلك الغربيين في مؤسساتهم، وكان من الطبيعي، في غياب الخبرة التي أتى بها المبشّرون اللاتين والبروتستنتيون، أن تعرف الكنيسة النجاح كما الفشل. قليل من المؤسسات عرف الاستمرارية، بينما تعرَّض الكثير منها للإقفال، ثم أَعادَ العمل مع تبدّل الظروف التاريخية. وقد طالت هذه المؤسّسات المدارس والمياتم ومآوي العجزة والمستوصفات والمستشفيات والجامعات.

لن أدخل في بحث تاريخي لست مؤهَّلاً له. وأتمنى أن يقوم بذلك لاحقًا باحثون مختصّون. لكن لا بدّ من ملاحظة أمر واحد على الأقل ألا وهو أنّ هذه المؤسّسات، على مرّ الزمان، اتّسمت بالانفتاح. وهذه المؤسّسات، رغم ملكيّة الكنيسة الأنطاكيّة لها، لم تسلك مسلكًا فئويًّا عبر سنوات عملها. لكن هذا الأمر، رغم إيجابياته، لا يجيب عن السؤال الأساس، والذي يطرحه بصدق المؤمنون اليوم: ماذا يعطي لمؤسسة تملكها الكنيسة هويّةَ استقامة الرأي فتمثّل في الجماعة دور الخادمة وفي العالم دور الشهادة؟

يمكن أن يخيَّل للبعض أنَّ هذا السؤالَ ترف فكريٌّ ليس إلاّ، وأنّ وجود المؤسّسة هو هامّ بحدّ ذاته، وأنه علينا أن ندعم المؤسّسات بشكل براغماتي. هذا الموقف، على أهميته، يتجاهل مسؤولية الكنيسة عن العالم وموقعها كشاهدة لربها فيه. فلا يمكن

مؤسّسةً تملكها الكنيسة أن تكون مؤسّسةً كغيرها من المؤسّسات لا على الصعيد الفكري ولا على الصعيد المنهجي ولا على الصعيد التطبيقي. فالدعوة إلى حمل الصليب دعوة موجّهة ليس فقط للمؤمنين بل أيضًا للكنيسة في حضورها على الأرض. لذلك، حمل الصليب يعني تفتيشًا عن هذه الخصوصية لإبرازها حيث ما كان ذلك ممكنًا. مأسسة مؤسّسات الكنيسة تكون في فقدان التفتيش عن هذه الخصوصية وعن ربطها بهويّة المؤسّسة. أن لا يكون لمؤسساتنا هويّة يعني أن نسلك في الدنيا دون طعم أو لون، يعني أن لا يكون ثمة ضرورة لوجود مؤسّساتنا. والسؤال يطرحه اليوم وبحدّةٍ مُخْلصون في الكنيسة: ما هي هويّة مؤسّسات تملكها الكنيسة؟ هل غُطِّسَت في جرن المعمودية، فدفنت مع المسيح لتقوم معه غالبةً الموت؟

من ناحية أخرى، رُبّ قائل إن السائل عن هويّة المؤسّسات هو مجرّد متطيِّف يجد أن من حقه أن يستفيد مجّانًا من خدمات المؤسّسة التي تملكها الكنيسة بسبب انتمائه الطائفي إليها. هذا موجود وقائم. أنا لا أتوقّف عند هذا المنحى النفعي، وأعتقد أنه من واجب المؤمنين الذين يستفيدون من خدمات هذه المؤسسات أن يَجودوا عليها، وليس فقط أن يقوموا بواجبهم تجاهها. لكن يبقى السؤال مطروحًا بالنسبة إلى الفقراء ومتوسّطي الحال الذين لا يستطيعون دفع المتوجبات المستحقة عليهم مقابل الخدمات التي يطلبون، وذلك مهما يكن انتماؤهم. كيف تكون هذه المؤسسات مؤسّسات "كنسيّة" إن لم يكن لها خطط خدمة تجاههم؟ كيف تكون مؤسساتٌ تملكها الكنيسة سامريٌّ اليوم تجاهَ مَنْ جَرّحه لصوص عالم الاستهلاك الجدد؟ كيف تستحقّ هذه المؤسسات لقب استقامة الرأي فتَمْلك وكأنها لا تملك؟

أسئلة صعبة للغاية لأنها ذات بُعْد عملي واقعي مرتبط ارتباطًا وثيقًا باستمراريتها. المأسسة التي تتأكّلنا في الكنيسة لم تسمح لنا يومًا بأن نتوقّف ونفكّر مليًّا بالأمر. ويبقى السؤال: هل المؤسسات التي تملكها الكنيسة تخدم كمؤسّسات كنسيّة؟ إن كانت لا تفعل، هل المال هو العائق إلى جانب الموقف المبدئي؟ هل يمكن أن تستعاد خبرة باسيليوس الكبير بعد ألف وستّ مئة سنة تقريبًا؟

مأسسة الوقف وطغيان المتموّلين

يبدو هكذا، بعد هذا العرض لطريقة التعاطي مع المال على صعيد الخدمة الكنسية، أنّ المشكلة متعدّدة الأوجه. فهناك موضوع تأمين المال، وموضوع أولويات صرف المال، وأخيرًا موضوع التربية على استعمال المال. وقد أضاعت علينا المأسسةُ فرصَ حسن التصرّف بها جميعها.

ألوقف والفقراء

تشكّل عطاءاتُ المؤمنين اليوم الدخلَ الأساسي في الكنيسة. فهي تعطى لخدّام الأسرار (فتساهم في تأمين معيشتهم بشكل مباشرَ وفاعل) وتعطى للجان الكنائس في مجالس الرعايا بأشكال مختلفة. هناك أيضًا طبعًا التبرّعات التي تجبى لأغراض إنشائية: مستشفى، مؤسّسة تربوية، تشييد كنيسة إلخ... هناك أيضًا، وبشكل أقلّ فعالية وشيوعًا، ريع الأوقاف[٥].

يتميّز هذا الواقع بما يلي:

١ – تفاوت رهيب بين الأبرشيات ومداخيلها.

٢ – تفاوت رهيب بين الرعايا، ما يؤثّر مباشرة على الرعاية بسبب الظروف المؤمّنة لمعيشة خدّام الأسرار.

٣ – غياب كامل لإمكانيات التخطيط البعيد المدى، على الصُّعُد الرعائي والتبشيري والإنمائي.

٤ – روح استقلالية بين الرعايا وبين الجمعيات وبين الأبرشيات يجعل من المستحيل الكلام على رؤية كنسيّة واحدة في موضوع التعاطي مع المال.

٥– المؤسف أنه ليس لدينا أيّة معطيات عامّة حول ميزانيات الأبرشيات والتي تسمح لنا برسم صورة واضحة عن الأوضاع المالية الراهنة.

٥ – شبه انعدام لسياسة تنمية الأوقاف، فبتنا عشّاق أراضيَ قاحلة، نعبد أصنامًا من نوع جديد.

٦ – اتّكال كامل على التبرّعات في كلّ المشاريع الإنشائية مع ما يتبع ذلك من مراعاة للمتموّلين على حساب حدّة الإنجيل.

٧ – لجوء حتميّ، من قبل المؤسسات التي تملكها الكنيسة، إلى سياسات تمويلية ذاتية مع ما يعني ذلك من تشدّد في سياسات خدمة الفقراء، ومن تساهُل في الدفاع عن طروحات تتلاءم واستقامة الرأي.

هذا الواقع المرير نتلمّسه فقط إذا تواضعنا ودخلنا في مرارة الواقع الذي تخلّفه لنا مأسسة تجعل:

١ – من "البطرشيل[٦]" مبدأً،

٢ – ومن عدم بيع الوقف وتثميره موقفًا خلقيًّا،

٣ – ومن استجداء مال الأغنياء نهجًا.

والحقيقة المرّة أننا بحاجة إلى رؤية متجدِّدة حول:

١ – معيشة خادم الأسرار، فلا ترتهن فيها حياته لموت هذا وزواج ذاك وعماد ذلك،

٢ – تثمير الوقف بالبيع والتنمية وغيرها من الوسائل، فيصبح الوقف حقًّا "وقف الفقراء"،

٣ – سياسة قبول التبرّعات، فيتشرّف المتبرِّع بالعطاء وليس الآخذ بالقبول.

٦– أي من تقاضي المال مقابل خدمة كنسيّة.

أللياقة والترتيب

متى استقامت هذه الرؤية، عندئذ، وعندئذ فقط، سيمكننا تحدّي المأسسة القائمة في استخدام مداخيل الكنيسة، فيتمّ التوظيف بلياقة وترتيب. أجل، فإنّ وجه المأسسة في التعاطي مع المال لا يطال فقط القصور في الحصول عليه بل أيضًا طريقة استعماله.

ليس لابن البشر مكانٌ يسند إليه رأسه،

الفقراء معكم في كل حين، (مرقس ١٤:٧)

ما لم تفعلوهُ لإخوتي هؤلاء الصغار فلي أيضًا لم تفعلوهُ (متّى ٢٥:٤٥).

أين نحن في تصرّفاتنا الكنسيّة، كمؤمنين وكجماعة مؤمنين، من هذا الكلام؟ أنا لا أسمح لنفسي بالحكم على تصرّفات أحد، وكم بالحري على تصرّفات الجماعة ككلّ. لكن هل لنا أن نسأل، بصدق وتواضع وتوبة، عن بعض الأمور التي ربّما تساءل عنها الأخ البسيط، وليس من المستحيل أن نُسْأل عنها يوم الدينونة...

هل نحن نذبح لبَعْل (ونُشْرِك) أم لا، بغياب سلّم أولويات يوضِح، على سبيل المثال لا الحصر، بأيّ منطق نشيد الكنائس الضخمة التي لا نملأ إلا قليلاً وقليلاً جدًا، بينما نملك مؤسّسات لا تسمح لها أوضاعها بمساعدة المحتاجين حتى عندما تريد ذلك؟ فكم بالحري متى لا تخطط لذلك؟

هل نحن نذبح لبَعْل (ونُشْرِك) أم لا، باعتمادنا استقلالية إدارية تحجب الضروري عن أخ (فرد أو رعية أو أبرشية) بينما "أخ" آخر (مماثل) يمتلك الضروري وغير الضروري؟ وكم من مرّة نفتّش عن الحجج اللاهوتية للدفاع عن واقع مؤلم كهذا!

هل نحن نذبح لبَعْل (ونُشْرِك) أم لا، باعتمادنا الأساليب الدنيوية في احتفالات وتصرفات دنيوية بحجّة التمثّل بأهل الدنيا من أجل ربح ودّهم؟ أهكذا نبرهن عن أننا تلاميذ الناصري؟ ألا يخيّل لنا أننا، بتعاطينا مع المال، نناقض كلّ وعظنا وخطبنا وتعاليمنا، جاعلين من العقيدة تركيبة فلسفية ليس إلاّ!

مشكلة التعاطي مع المال، وتوظيفه بلياقة وترتيب، هي تنظيمية في الشكل فقط، لكنّها إيمانية بالعمق، ومن هنا خطر الوقوع في الشِّرْك. فلا يمكن أن نكون مؤمنين فعلاً ويكون سلوكنا مماثلا لسلوك كل الناس بحجّة أنه لا يمكننا أن نجابه التيّار العارم! هل جابه الرسل الإثنا عشر تيار دنياهم أم لا؟ لذلك، ولأن للتعاطي مع المال شقًّا لاهوتيًّا، ولأنّ اللاهوت حياة، فلا بدّ من مواجهة ضرورة التربية على استعماله بشكل مناسب.

التنشئة على روح الفقر أو العطاء والبناء في المسيح

هذا لا يكون إلاّ إذا اعتمدنا نسقًا تربويًا يُنْشئ على روح الفقر وعلى تلازم الحياة في المسيح مع العطاء المجاني. أن نملك، كجماعة مؤمنين أو كمؤمنين، ليس موضوع البحث. لكن كيف يصل الملك إلينا، هذا موضوع هامّ وهامّ للغاية. البعض يعتبرون أن الموضوع أخلاقي. الحقيقة أن الموضوع ليس موضوع أخلاق فقط، بل هو موضوع ثقة بالله أيضًا. لذلك لا بدّ من الحذر الشديد عندما نرى أن ظروفًا معيّنة سمحت لنا بتكديس المال. عندها لا بدّ أن نسأل عن مصيرنا (لا عن مصير المال) وعن التزامنا الحياةَ في المسيح. على الأقلّ، هل ندرك أن تكديس المال بحدّ ذاته يشكّل خطرًا على حسب قول السيّد: "إنه أسهل على الجمل أن يدخل في خرم الإبرة من أن يدخل غنيٌّ ملكوت السموات"؟ لذلك فعلينا أن نبني على روح الفقر، فلا نعتبر أنفسنا في وضعٍ أدنى أو أرفع بحسب ما نملك.

من ناحية أخرى، إنْ مَلَكْنا فكيف يكون ذلك وكأننا لا نملك؟ هنا تكمن التربية على العطاء فيتدرّب عليه المؤمنون منذ نعومة أظفارهم، وتتدرّب عليه الكنيسة بهيئاتها المختلفة. يتكلّم اللاهوتي الكبير الذي فقدنا في القرن العشرين، الأب ألكسندر شميمن، على الشكر بعد الشكر، بمعنى أن العلاقة التي نختبر في سرِّ الشكر لا تكتمل ما لم ترتبط بشكل عضويّ بتكملة لها في سرِّ القريب بعد الخدمة الطقسية. هل نربّي على ذلك؟ هل نُظْهر فعلاً أن عملية العطاء عملية ملازمة لإيماننا، وأنها ليست أعمال

رحمة يستعلي فيها الأغنياء على الفقراء... خصوصًا متى كانت الكنيسة هي الغنية، والفقراء هم كل الذين وضعهم الله على طريقها؟ أم إننا اعتبرنا "جهالة الربّ يسوع"جهلاً وقصورًا فكريًا، وفضّلنا عليها (على عكس الرسول) حكمة هذا الدهر وهذه الدنيا؟ وَضْعُنا الكنسي، للأسف، يؤول إلى تفضيلنا حكمةَ الدنيا وأهلَ الدهر على جهالة البساطة الإنجيلية.

إنما الحاجة إلى واحد: أن نغتني بالمسيح!

لقد اختارت مريم النصيب الصالح الذي لا ينزع منها (لوقا ١٠:٤٢)

هذا كان خيار مريم، أخت لعازر عند قَدَمَي يسوع. فالحاجة في الكنيسة إلى واحد في موضوع التعاطي مع المال. الغنى الحقيقي هو الغنى الذي يأتينا من الربّ فيلهمنا كيف نأتي بالمال الذي علينا أن نصرفه على أحبائه، وكيف نبني مؤسسات تنمو على حسب قلبه، وكيف نشهد في العالم أن المحبة على الصليب تترجمها الكنيسةُ فرحَ عطاءٍ وتعهُّد.

هل لنا أن نقف وقفة جريئة ونقوِّم مسيرة تعاملنا المالي، رافضين كل أوجه المأسسة التي تحول دون أن نوصل الربّ إلى الناس؟

هذا ما نرجوه حتى لا يكون إيماننا بالله فلسفيًا، بينما نحن نعبد عمليًا المال والجاه والسلطة.

ألفصل السابع

أنْ نُنْشِئ «في» المسيح

ألتنشئة والتعليم

عرفت الكنيسة، منذ فجر المسيحية، "نظامًا تعليميًّا" للراغبين بالانتساب إليها، نعرفه جميعًا باسم "الموعوظية". فالموعوظ هو الذي يتعرّف إلى المسيحية على يد شيخ من شيوخ الرعية قبل أن يُعْتَبَر أهلاً للدخول إلى الجسم الكنسي المحلّيّ. ويطال هذا التحضير، على ما وَصَلنا في التقليد، كافّة الأوجه المتعلّقة بالكنيسة إن من حيث حياتها أو من حيث تعاليمها. فالمسيحية إذًا "تَبْني" الشخص وتُنْشئه في الجماعة جسد المسيح، أي إنها توجده وتنمّيه في آن معًا، لذلك استعملت كلمة "تنشئة" كونها تستوعب التربية التي تغطّي وجه البناء والتنمية دون أن تتضمّن معنى الإيجاد[1].

والتنشئة في المسيحية (كما التربية عمومًا) لا تنفصل عن التعليم، وهذا ليس من باب الصدفة بل من حيث كنه الإعلان الذي أتى به يسوع: التجسّد أساس العملية الخلاصية وعليه تُبْنى كل استمرارية لفعل هذا الإعلان في العالم. فهدف التنشئة في المسيح هو إيجاد من يمدّون عملية الجسّد هذه في التاريخ وبنيانهم كأفراد وكجماعة. فالجماعة، جسد المسيح، هي إطار التنشئة، والأشخاص، بتفاعلهم، بعضهم مع بعض، يقيمون هذه الجماعة متناغمة، متكاملة، طائعة لإرادة العريس يسوع المسيح.

١- هنا يأتي معنى المعمودية العميق كما أشار إليه بولس الرسول. بدخول المؤمن المسيحية يموت إنسان قديم وينوجد إنسان جديد.

إشكالية التعليم "في" الكنيسة

ليس صدفةً أن يُطْرَح اليوم على بساط البحث موضوع "التنشئة المسيحية" كموضوع إشكالي.

ما هي التنشئة المسيحية؟ هل هي ما نعرفه اليوم هنا وثمّة، خصوصًا في عالمنا الأرثوذكسي، والذي أدّى إلى الطلاق الحاصل بين الرؤية والواقع، وذلك على كافة المستويات[٢]؟ هل يكفي أن نقول، لشيء من راحة الضمير، إن هذا الطلاق حتميّ وهو عائد لطبيعة الإنسان الساقطة، كما لو أنّ التجسّد والفداء والخلاص لم تحصل... ناكرين عمليًّا ما نبشّر به في ترتيلنا "المسيح قام"؟

ما هي التنشئة المسيحية؟ هل هي تراكم معارف في العقيدة وفي القوانين وفي سِيَر القديسين، حتى ولو بدت الجماعة المسيحية في تناقض مع نفسها بالرجوع إلى ما هو ترجمة العقيدة والقوانين في حياة "تقديس" للمؤمنين اليوم؟

ما هي التنشئة المسيحية؟ هل هي ترداد لما قاله غيرنا من قبل، كما لو أن واقع العالم اليوم لا يستلزم خطابًا جديدًا ومواقف جديدة وتحدّيات جديدة؟

تطرح هذه الأسئلة على ضميرنا إشكالية "التعليم" من ضمن إشكالية "التنشئة" ككل[٣]، وتُخْتَصَر عمليًّا في سؤال أساسي واحد: هل من تعليم مرتبط بالتنشئة إلاّ "في" الكنيسة؟

ألتنشئة كترجمة للرؤية الخلاصية

ماذا يُغَيِّر يا ترى حرف الجرّ هذا: أن نقول إن التنشئة لا تقوم إلاّ "في" الكنيسة يعني

٢- أكان ذلك على مستوى الأفراد، أو على مستوى المؤسسات المدعوّة كنسية، أو على مستوى الدول المدعوّة مسيحية.

٣- الفصل المصطنع بينهما لا يؤدّي إلاّ إلى مزيد من التباعد بين الرؤية والواقع.

أنه لا يمكننا أن نتصوّر تنشئة "في المسيح" لا تقوم على تجسيد للمقولات التي ننقلها في خطابنا. أي إن كل تنشئة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بخبرة معيوشة من قبل الجماعة، يتعرّف إليها الموعوظ (وهو طفل في واقعنا اليوم) ويحياها. يصبح إذاك "عمله" في الكنيسة منطلقًا ومصبًّا لكل تعليم فتستقيم التنشئة. إنه من المؤسف حقًّا أن يترسّخ في ذهن المؤمنين أن المسيحية هي نخبوية على الصعيد الفكري، وأن الخوض في "اللاهوت" متاح لقلّة عزيزة فقط. أمّا السواد الأعظم من المؤمنين فليس عليهم إلاّ الالتزام بالتقوى وترداد المقولات المعلَّبة... والحقيقة أنه عندما نحضِّر أنفسنا ونحضِّر المؤمنين منذ الصغر لربط حياتنا جميعًا بمضمون الإيمان الأساسي، نكتشف إذّاك أهميّة هذا "البُعد العَمَلاني" للتنشئة في المسيح: فبه تسبق الخبرةُ أيَّ كلام وأيّة معرفة ذهنية، مهيِّئة المؤمن لتَقَبُّل الكشف الإلهي بكل جوارحه. هل يأكل الطفل اللحم قبل اللبن؟ كل كيانه بحاجة للتدرُّج... وهكذا في التنشئة المسيحية، نتدرج بالعمل لنحضِّر أذهاننا لبهاء الحقيقة الإلهية.

أمّا أن نعتبر تعليمًا وتنشئةً الجهدَ الذهني الذي يقتصر على المعارف، فهذا أمر لا يقوم "في" الجماعة بل على أيّ مقعد دراسي في أيّة مدرسة أو جامعة، وهذا لا يعطي عن المسيحية إلاّ ما هو خاضع للتأويل والتبديل حسب أهواء البشر. أمّا الرؤية الخلاصية، والتي هي، كما أوضحت، التناغم بين الحياة والمعارف، التي من المفترض أن تُتَرْجَم في الجماعة الحيّة، فهي "النصيب الصالح الذي لا يُنْزَع" من المؤمن إذا ما استطعنا أن نوصله إليه.

ألتعليم وجه التنشئة المعرفي

إذا ما قبلنا أن هذه هي الصورة الصحيحة للتنشئة "في المسيح"، ليس فقط لأنها خبرة المسيحية الأولى بل أيضًا لأنها وحدها تتناغم والرسالة الخلاصية كما عاشها المسيح على الأرض[٤]، فيكون التعليم الذي نحن بصدده مجرَّد الوجه المعرفي لهذه

٤- ناهيك بأنّ أحدث النظريات التربوية تعتمد هذه المقاربة في اكتساب كل المعارف.

التنشئة. لذلك لا تستقيم أية دراسة لماهية التعليم الديني إلاّ بالاستناد إلى هذا المفهوم العميق للتنشئة في المسيح.

هذا لا يعني أنه لا يمكن لدارس حضارات أن ينظر من الخارج إلى التركيبة العقائدية التي تقوم عليها المسيحية؛ أو أنه لا يمكن لأديب أن يقرأ النصوص المسيحية من وجهة نظر علمية نقدية، متبنّيًا الأسلوب الذي يشاء في ذلك؛ أو أنه لا يمكن لمؤرِّخ أن ينظر إلى تاريخ الكنيسة والشخصيات الدينية فيه نظرة تقوم على مقارنة الأديان والتشابه القائم في خطاباتها المختلفة؛ بل على العكس يمكن أن يكون ذلك ضروريًّا للحفاظ على الروح النقدية وعلى حِدَّة الإنجيل[٥].

لكن، ما نعتبره نحن في الكنيسة تنشئة في المسيح، وتعليمًا ملائمًا لهذه التنشئة، أمر آخر بالكليّة. ليس لأن المقاربتين تختلفان في العمق، بل لأنهما تختلفان في الأسلوب. فيمكن للباحث أن يعرف، ولا بدّ للمؤمن أن يعرف. لكن المؤمن مدعوّ أن يعرف لماذا يعرف، وهنا يكمن الفرق، كلُّ الفرق. الباحث العلمي يعرف أنه يريد أن يعرف لمزيد من التحليل، أو مزيد من المقارنة، أو مزيد من الرؤية الحضارية الشاملة. أمّا المؤمن فعليه أن يعرف أن معرفته ضرورية ليشهد للرجاء الذي يحياه. لكنه إن لم يكن يحيا هذا الرجاء فلن يعرف، لماذا يعرف، ولن تكون لمعرفته غاية، فينتصر عليه أهل هذا الدهر لأنهم أدهى منه.

صعوبة تقويم المدى التعليمي في الكنيسة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالوحدة القائمة بين المعرفة الحقيقية والحياة في المسيح. فبين الاثنتين علاقة جدلية لا تنتهي. مأسسة التعليم التي انتهينا إليها والتي هي فحوى كلامي هنا، هي في أننا فصلنا بين التعليم والحياة في المسيح، فجعلنا من الأوّل مطرقة معرفية تقوم على الببغائية، وجعلنا من الثانية قواعد

٥- أخطر ما يمكن أن تواجهه المسيحية هو الاستكانة إلى التاريخ وإلى الترداد وإلى المتحفية، لأنها بذلك تبتعد عن كون إلهها "إلهاً حيًّا".

أخلاقية وسلوكية فردية جامدة. لمزيد من الدقّة، سألج، في ما يلي، موضوع أسس المعرفة في الكنيسة وكيف تَحَوَّلنا عنها عمليًّا، علّني، في النهاية، أطرح على قارئي سبل خروج معقولة من هذا الواقع الأليم.

ألتعليم وأسسه الثلاثة

يقوم التعليم المسيحي على أسس معرفية ثلاثة مترابطة ومتكاملة على الصعيدين الذهني والحياتي. فحتّى لو بدا أنه من الممكن فصل هذه الأسس بمظاهرها المحسوسة، إلاّ أنها عمليًّا تشكّل وحدة تتداخل عناصرها بعضها ببعض باستمرار وتواتر. فالكتاب المقدّس مبثوث في التقليد الشريف وفي حياة الكنيسة. هما مرآته وهو محرّكهما. والتقليد الشريف مؤسِّس في الكتاب ومَصُوغ في حياة الكنيسة. وحياة الكنيسة ترجمة للكتاب الشريف ومجدِّدة باستمرار للتقليد. لذلك، ومن وجهة النظر التي قدّمنا لها، فهذه الأسس المعرفية الثلاثة متراصّة نوعًا ومتكاملة شكلاً. مشكلتنا، كما سنرى، أننا توقّفنا عند شكل كل منها ونسينا ما يوحِّدها وهو الأساس.

ألكتاب المقدّس

الكتاب المقدَّس هو ما اعتبرته الكنيسة المرجع الأساس للمسيرة الخلاصية. فهو مرتكز الإيمان ومنبع العقيدة ومحكّ كل تصرّف والتزام بمقتضيات حياة السيّد على الأرض. لذلك لا شيء يمكن أن يُغْني عن الكتاب المقدَّس وعن التعاطي المباشر معه على ضوء التعامل الكنسي المستمرّ معه. فهو يُقْرأ في الكنيسة ويُفَسَّر في الكنيسة ويتعامل معه المؤمن بما أعطي من فَهْم بتناغم مع هذه القراءة وهذا التفسير.

لذلك فالكتاب المقدَّس مُلْهِم الجماعة كما هو مُلْهِم المؤمن. فلا الجماعة تملك الحقّ الحصري في قراءته ولا الفرد يملك الحرية في تفسيره دون الرجوع إلى الجماعة. بهذه المعيّة يُقْرأ الكتاب وبالمعيّة نفسها يعاش. فمعرفة الكتاب المقدس الذهنية ليست،

على أهميتها، إلاّ معرفة مجتزأة. أن تقرأ الكتاب وأن تفسره اليوم يعني أنك تعيش مع الإخوة خبرة ترجمته في واقع الكنيسة اليومي كفرد وكجماعة.

السؤال الملّح اليوم هو هذا: أيّ موقع للكتاب المقدَّس في حياتنا وفي أذهاننا وفي فحصنا لتحدّيات العالم لنا؟ ما يجعل، في معرض كلامي هنا، الموضوعَ أكثرَ إلحاحًا هو البُعد التعليمي للكتاب المقدَّس في هذه الرؤية.

يرتكز التعليم حول الكتاب المقدس في كنيستنا اليوم على الوعظ وعلى القليل القليل ممّا يُنْشَر تحت عنوان دراسات كتابية أو تأمّلات كتابية. والأسئلة عديدة جدًا حول هذا الموضوع: هل يشدّ الوعظُ اليوم المؤمنَ إلى معرفة للكتاب أفضل؟ هل اللغة التي يقوم عليها الوعظ هي اللغة المستحَبّة التي تقرّب المضمون الكتابي من أذهان المؤمنين كما من حياتهم؟ هل "الخُلُقيات" التي ينطوي عليها القسم الأكبر من المضامين الوعظية هي التي تفي الكتاب المقدَّس حقَّه؟

هل تساءلنا يومًا عن ماهية التفسير الكتابي وعن بُعد التأملات الكتابية في بناء المؤمن في المسيح؟ بمعنى آخر، هل ما نكتبه كتفسير وكتأمّل حول هذا المقطع من الكتاب المقدَّس أو ذاك يساعد المؤمن على جعل فكره متناسقًا مع فكر المسيح، وحياته متناغمة مع حياة المسيح؟ أم إننا نعتقد أن ترداد تعابير معيّنة، اعتدنا سماعها في أوساطنا الكنسية، كفيل بإيصال قصد الله من الكتاب؟

جهل المؤمنين للكتاب المقدَّس اليوم واقع مرير، وهو جهل يؤدّي بشكل طبيعي إلى ابتعاد عن المسيحية في جوهرها، وإلى الوقوع في يهودية جديدة تقوم على الأخلاق والوصايا وحفظ الآيات. أجل، تقوم بعض دروس التعليم الديني في المدارس على "تحفيظ" مقاطع من الكتاب، وعلى وضع علامة له، وعلى إعطاء القصاص المناسب للمتخلّف عنه إلخ... ويقوم التحضير لسرّ الاعتراف مثلاً على "فحص النفس" على ضوء الوصايا العشر، حتى لا "ينتقم الله" منّا بالمرض وفي أحسن الأحوال بـ "الزعل"... وتقوم التربية على حسن السلوك بالترهيب من الشيطان الذي يداهم ليلاً أو بالتهديد

بعدم إرضاء الملاك الحارس نهارًا... كل هذا باسم التنشئة الدينية والكتاب المقدَّس، وخصوصًا التقليد الشريف.

ألتقليد الشريف

أقصد، في ما يلي، بالتقليد الشريف ما توارثناه في الكنيسة من عقائد وأنظمة وطقوس، ثبتت عبر العصور، مشكِّلة إطار التحرّك الكنسي في سعي الجماعة لمدّ الشهادة إلى العالم. لذلك فالتقليد الشريف ليس جمودًا بل حياةٌ. من هنا أن كل ما ورد في فصلين سابقين عن الصوم وعن الصلاة يعطي فكرة واضحة عن كيفية تحوُّل التقليد من الشهادة الحيّة إلى جمود الحرف. فلم يعد صومنا صومًا "حسب التقليد" ولا صلاتنا صلاة "حسب التقليد" بل نقلِّد في صومنا وصلاتنا الشكل الذي وضعه آخرون في زمنهم ولأوضاعهم وفي ظلّ بيئتهم الثقافية والاجتماعية، غير ممحِّصين بالحسّ الذي حرّكهم، وقد أوضحت ذلك في الفصول الأولى من هذا الكتاب.

لكن، إلى جانب الصلاة والصوم، هناك أيضًا موضوع "العقيدة" والذي لم ألجه سابقًا، وهو مرتبط ارتباطًا وثيقًا بإشكالية التعليم الخاصّة بهذا المقال. السؤال الذي يُطْرَح علينا وعن حقّ هو هذا: هل تشكِّل العقيدة تركيبة ذهنية أم هي شيء آخر؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هو؟

الجواب البَدَهي هو أن العقيدة عندنا ليست تركيبة ذهنية كما أنها ليست فقط ثمرة حياة ونبع حياة[٦] بل هي الوجه الآخر لحياتنا على الأرض. هل نعيش ذلك؟ هل ندرك كيف نوصل هذه الخصوصية في تنشئتنا؟ هل فعلاً نريد ذلك؟ إذا ما قرأنا كتب التعليم الديني، أو مَحّصْنا بعض النصوص التي تنْشَر هنا وثمّة، للاحظنا الغياب التامّ لهذه الخصوصية.

٦- يمكن لكل فلسفة أن تدّعي ذلك.

فمن يربط مثلاً خدمة سرّ الشكر بكون الكنيسة جسد الرب، من وجهة نظر عقيدتنا القائمة على دور الإيمان الواحد في خلق الجماعة الواحدة، حول الكأس الواحدة؟ ألا يكون وجود أيّ غير أرثوذكسي في هذه الخدمة مناقضًا عمليًّا للفحوى العقائديّة التي ينطوي عليها مفهوم السرّ؟ ألا نكون عمليًّا قد أدخلنا أنفسنا بعملية تعليم مناقضة لفحوى العقيدة عندما نحوّل خدمة الأسرار عمومًا إلى احتفالات على قياسنا؟

ما هي نظرتنا للإنسان؟ أهو فعلاً المخلوق الوحيد الذي يصحّ فيه القول "إنه على صورة الله ومثاله" وإن المسيح افتداه بدمّه الكريم وأعاد له الكرامة والمجد اللذين خسرهما بسبب الخطيئة؟ هل نسلك بمقتضى هذا الإيمان؟ كيف نترجم ذلك؟ جاءت الأيقونة في تراثنا ترجمة لعقيدتي التجسّد والفداء ولكل الرؤية المسيحية المرتبطة بمفهوم الحياة في المسيح[٧]. ألم نستعض عمليًّا عن الأيقونة، وعن بُعدها العقائدي الصلاتي، بالتصوير الفوتوغرافي على أشكاله؟ أليس هذا إعلانًا عمليًّا عن أننا لا نهتمّ للزمن الجديد الذي ألغى فيه الربّ يسوع زمنَ الخطيئة ووضع مكانه زمنَ الخلاص المُخْتَصَر على الصليب ؟ أليس يعني هذا أننا لا نرى ضرورة في حمل أنفسنا على هذا الجهد العملي الذي يترجم أننا، ولو عشنا في العالم، لكننا ننتمي إلى عالم آخر هو زمن التقديس بالمحبة وليس بالانغلاق على النفس؟

من يرى في الجماعة المؤمنة "اجتماع الكل إلى واحد" عملاً بترجمة الرؤية العقائدية للثالوث الأقدس: "ليكونوا واحِدًا كما نحن واحد"؟ فما تفسير التمسُّك بالأيقونسطاس في كنائسنا وكأنه جزء من العقيدة، فندافع بحجّته عن قِسمة شعب الله إلى علمانيين واكليركيين، إلى ذكور وإناث[٨]؟ نسينا الأيقونة وتمسكنا بالحجر الذي

٧- فالقديسون الذين نرسمهم في الأيقونة يمثّلون أناسًا نموا في المسيح فجعلوا من حياتهم على الأرض مثالاً لمدّ فعّالية الفداء في التاريخ انطلاقًا من قناعة راسخة بأن المسيح بتجسّده كان إنسانًا تامًا. أمّا رسمنا في الأيقونة للأحداث الخلاصية فلربطها بحقيقة التجسّد وبامتدادها إلينا.

٨- بسبب المنع القائم لدخول النساء إلى ما يسمّى "الهيكل".

يحمل الأيقونة متناقدين مع العقيدة مرتين عوض المرّة الواحدة... ففي هذا الجو هل يستقيم التعليم؟

ما أراده فعلاً لنا التقليد هو الوعي المستمر لعلاقة العقيدة المؤسّسة في الكتاب المقدّس مع حياتنا. فنفحص كل جديد وكل تصرّف وكل موروث على ضوء هذين المعطيين. لذلك لا بدّ من توضيح ماهيّة العقيدة، فلا يقوم الخلط بينها، كقسم من التقليد الشريف، وبين عادات تَقَوية أو غيرها هي مدعوّة حتمًا للتبدّل والتغيير. فعوض أن نركّز هنا وهناك وثمّة على مظاهر شكلية، نغوص في عمق معاني الأمور لنستنبط منها ما هو متناسب وتنشئة المؤمنين في المسيح.

فعلى سبيل المثال لا الحصر:

١ – نجد كتبًا للتعليم الديني تفصّل كل ما هو عائد للأشكال في خدمة سرّ الشكر من شكل "الصينية" في التقدمة إلى ثياب الكاهن، وكأنها جميعها على المستوى نفسه من الأهمّيّة.

٢ – من ناحية أخرى، درج البعض على تعليم الأطفال، أثناء القدّاس الإلهي في قاعات مجاورة، على أن يلتحقوا بالخدمة في نهايتها عند المناولة... كيف ندافع عن موقف كهذا من منظار وحدة شعب الله وتنشئة الأطفال في الجماعة؟ أنا أدرك كافة "المشاكل" التي يسبّبها وجود الأطفال أثناء الخدمة. لكن، ألا ينبغي علينا أن نفتّش عن حلول تتماشى والرؤية الصحيحة لماهية جسد المسيح الواحد المتمثّل بالجماعة الملتفّة حول الكأس بوحدة الإيمان؟

٣ – نجد كتبًا للتعليم الديني تقوم على سرد الأسرار وتعدادها بأنّها سبعة، وتذهب إلى دراسة كل سرٍّ من الأسرار على أنه شكل ومضمون إلخ... عجيبٌ هذا الكلام الذي أفرغ كافّة الأسرار من معناها، ووضع المؤمن خارج الجماعة بإعطاء الأسرار بُعدًا فرديًّا فقط كما لو أن الحياة في المسيح تقوم خارج خبرة الحياة في الجماعة وفي العالم. أية تنشئة ممكنة وتعليمنا حول هذا الموضوع الهامّ مُستَمَدٌّ من المقاربة الغربية لكل موضوع الجماعة المؤمنة.

كما نجد نصوصًا تعليمية عن المحبّة دون أن ندري ما هي مفاعيل هذا التعليم. كيف تتصرف الكنيسة كجماعة مُحِبّة فتعلِّمنا كيف نتصرّف كأفراد مُحِبّين؟ أين نحن مثلاً من "محبة الأعداء"؟ أين نحن من مَثَل السامري الشفوق؟ أين نحن من مَثَل لعازار والغني؟ في تراثنا جبابرة كيوحنّا الذهبي الفم وباسيليوس الكبير وغيرهما أعطوا هذا الكلام مضمونًا عمليًا واضحًا، ليس فقط بحياتهم الشخصية بل بتصرّفاتهم كمدبِّري الجماعة التي كانوا يرعون. فنحن اليوم لا نجد هذه الأمثلة في كتب التعليم الديني، ولا نجد في الممارسات الكنسية ما يذكِّر بها المؤمنين باستمرار. ألا ينبغي أن يصبح التعليم عن المحبة (إن شئنا تنشئة المؤمنين في المسيح) أكثر التصاقًا مع خبراتنا الرعائية، من جهة، ومع ما عرفته الكنيسة سابقًا في هذا المجال؟ هل ما نكتفي به وعظًا وتنظيرًا يكفي؟

بل أكثر من ذلك، أين نحن من صياغة التقليد الشريف "تعليميًا"؟ ماذا تطرح الكنيسة اليوم في إطار عملية فكرية واسعة المرامي لتحاكي الزمن فتشدُّه إلى زمن الصليب عوض أن تتركه يتآكل؟ هذا لا يعني أبدًا أن على الكنيسة الأرثوذكسية أن تعطي أجوبة "عقائدية" عن كل شيء، بل بالعكس، عليها أن تحافظ على سياستها المرنة بترك المؤمنين يتفاعلون مع عصرهم بحرّية أبناء الله المعطاة لهم. لكن كيف تقوم الكنيسة بخلق تيّار فكريّ يمدّ العقيدة إلى عالم اليوم في حياة المؤمنين؟

وعلى سبيل المثال لا الحصر:

١ – هل تتماشى المقاربةُ المسيحية وشرعةَ حقوق الإنسان القائمة عل ثالوث الثورة الفرنسية: "حرية، مساواة، أُخوّة"؟ أم إنه لا بدّ من فكر نقدي يسعى إلى طرح بدائل قائمة على مثلّث متجذِّر في المسيحية هو: "مسؤولية، تكامل، خدمة"؟ قد يخيِّل للبعض أن الموضوع موضوعٌ تعبيريٌ، شكليّ. لكن الحقيقة أن الموضوع يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالرؤية إلى الإنسان كفرد أو كشخص. وشتّان ما بين مقاربة تعطي الإنسان أهميته من موقعه، ومقاربة تعطي الإنسان أهميته من جرّاء نوعية علاقاته. وهذا موضوع مرتبط بالتقليد وبكيف نربط التقليد بالحياة في عالم الاستهلاك اليوم.

٢ – ماذا تقول المسيحية اليوم عن التحدّيات العلمية؟ ليس بمعنى ما هي أجوبة المسيحية عن هذا من المواضيع أو ذاك، بل كيف تلج المسيحية النقاش حولها جميعًا فتخلق الأطر التي على أساسها يفكّر المرء ويسلك. فمن إشكالية البيئة إلى إشكالية الهندسة الوراثية كَمٌّ من المسائل المطروحة على ضمير المؤمن. كيف نعلّم عنها؟ أبإسقاط الأخلاقيات أم باعتماد العقل المستنير والمرتكز على معطيات عقائدية واضحة حول الإنسان والطبيعة والعلاقة بينهما؟ هل كُتِب هذا بلغة اليوم ولإنسان اليوم ولعالم اليوم؟ وكيف نمدّ هذا (إن وُجِد) إلى الشباب المبتعد عن الكنيسة؟

٣ – ماذا تقول الكنيسة في عالم جعل من الإنسان سلعة للاستهلاك، إن بتَشْيِيء الجسد أو باستلاب الفكر أو بسيطرة المال؟ هل هذا أخلاقيات أم صلب العقيدة؟ التعامل الكنسي مع هذه الشؤون لا يدلّ دومًا على ربط واضح لعقيدة التجسّد بما يعاني الإنسان اليوم من قهر في عالم ساده منطق القوة المبنيّة على المال وعلى المصالح. ما هي أطر تعليمنا في هذا المجال، فلا نبدو متخلّفين، بل نشارك في خلق حضارة المستقبل مستندين إلى المعطيات الراسخة في صلب رؤيتنا للإنسان ولعلاقاته مع عالمه.

يمكن لتعداد الأمثلة أن يطول. لكن لا بدّ لي هنا من أن أنتقل إلى الشقّ الأخير من مرتكزات التعليم ألا وهو الحياة في الكنيسة.

ألحياة في الكنيسة

ماذا أقصد بالوجه التعليمي للحياة في الكنيسة؟ هناك طبعًا الخدمة الكنسية، ولن أتوقّف عندها هنا، لأنه سبق لي أن طرحت هذا الموضوع في الفصل الخامس. لكن موضوع الحياة في الكنيسة يتعدّى موضوع الخدمة ليطال أيضًا موضوع حياة المؤمنين كأفراد مدعوّين إلى القداسة. نحن نعلّم عن القديسين من آباء وشهداء وأنبياء. هؤلاء القديسون هم منارات لنا لأنهم سعوا، بوجه من أوجه حياتهم، إلى أن يمدّوا حقيقة الشهادة إلى عالمهم، فاستحقّوا من الكنيسة أن تخلّد ذكرهم وتطلب شفاعتهم.

من هم القديسون؟ وكيف نعلّم عنهم؟ ولماذا نعلّم عنهم؟

إذا استعرضنا قسمًا كبيرًا من سِيَر القديسين المنشورة هنا وهنالك، وسمعنا التعليم عنهم في كثير من العظات لمناسبة أعيادهم، نتساءل فعلاً إن كان ذلك يتمّ لبناء جسد المسيح ولتنشئة المؤمنين في المسيح.

هل رَبْط التعليم عن القداسة بالخوارق من كلّ نوع هو فعلاً التعليم المتوافق مع رؤية الكنيسة لنفسها ومع تعليمها حول التجسّد؟ إن كانت القداسة رهنًا بالخوارق والعجائب فهي إذًا ليست بمتناول كل البشر الذين دعاهم رغم ذلك بولسُ الرسول في رسائله قديسين. إن كانت القداسة تقاس بالاستثناء فيكون المسيح إذّاك "إنسانًا من نوع آخر"، شيئًا من Superman، ما يعطِّل كليًّا مبدأ التجسّد وتناغم الطبيعتين في شخص السيّد.

هل فصل التعليم عن القداسة بتعطيل العقل هو عمل تربوي، أم على العكس هو عمل يهدم الرجاء في المؤمن الذي يرغب في أن يستنير عقله، فيلتقي القلبُ المفعم إيمانًا برجاحة عقل نفذ إليه النور الإلهي؟ لماذا لا نسترشد كبار الآباء الذين عملوا بعقلهم ليوضحوا الإيمان؟ لماذا لا نسترشد السيّد نفسَه الذي تحدّث بالعقل مع السامرية وغيرها ليشدّهم للإيمان؟

كيف تحوّلنا إلى هذا الواقع ففقدنا خصوصيتنا؟ بإحلالنا مطرقةَ المعلومة محلّ عيش المحبة!

مأسسة التنشئة وطغيان المعلومة

تجابِه كلُّ تربية وباستمرار خطرَ التحوّل من مبدأ "البناء" إلى مبدأ "التخزين". وفي مجال التربية الدينية يتحوّل هذا الخطر إلى تناقض مع الذات ومع الفحوى. أن تدرس العمليات الرياضية لا يعني أنك أصبحت عالمًا في الرياضيات. وأن تعرف المعادلات

الفيزيائية لا يعني أنك أصبحت فيزيائيًا. كما أنك إن دَرَست اللسانيات فلا يعني هذا أنك أصبحت أديبًا، لكن وفي كل هذه الأحوال لا تتناقض هذه المعارف مع ما يمكن أن تكون عليه لو "بُنِيَت" عندك هذه المعارف لتجعل منك عالمًا في الرياضيات أو فيزيائيًا أو أديبًا. لكن أن تعرف تاريخ الكنيسة وحياة القديسين والعقيدة لا يجعل منك مؤمنًا ولا يزيد حتى في إيمانك. فقط إن كانت هذه المعارف متجذِّرة في حياتك كشهادة لإيمانك، تكون إذّاك قد أُنْشِئت في المسيح. من هنا أني أعتبر أن "مأسسة التربية" (بشكل عامّ) هي في إحلال حفظ المعلومة وتقانة نقلها الذهني محلّ بناء المعرفة بالتجربة والاختبار والفكر النقدي الذي يؤدّي إلى معالجة المعلومة بشكل صحيح. فماذا إذًا في مجال التنشئة في المسيح، وهي أشمل كما سبق وقلنا؟

ألمعلومة في المنظار الحياتيّ

إنطلاقًا مما سبق وقلنا عن ماهية التنشئة في الكنيسة، ليس من وجود للمعلومة الدينية بالاستقلال عن المعيوش. أفهوم (concept) "الجمع" قائم بحدّ ذاته، ويمكنك أن تبنيه ذهنيًّا خارج أيّ واقع محسوس. الطاقة الكهربائية أفهوم فيزيائي تتعرّف إليه بمفاعيله، لكنه يمكنك أن تكتب عنه وأنت في الظلمة. لكن لا يمكنك أن تدرك الأفاهيم التي تقوم عليها التنشئة المسيحية دون أن تحياها. ليس من العجب وليس من باب الصدفة أن كلّم الربُّ الشعبَ بالأمثال.

كيف يمكنك أن تعي أفهوم "القريب" كما أراد السيّد أن تفهمه لولا مَثَل السامري الشفوق؟ كيف تعي أفهوم "المحبة" لو لم يعطك مَثَل أُجَراء الساعة الحادية عشرة؟ كيف تعي أفهوم المسؤولية لو لم يكن لك مَثَل "الوزنات"؟... وحتى يكتمل الأمر وضوحًا، مات هو على الصليب لئلاّ تقف المعرفة عند حدّ المثل بل تعالج بالموت على الصليب فتعلِن المحبة القصوى التي هي وراء كل تنشئة في المسيح؟

ألمرجعيّات ودورها

لذلك تُطرح علينا اليوم في الكنيسة مشكلة "المرجعيّات" لتنشئة كهذه. ما قيمة النصوص الموروثة؟ ما قيمة سِيَر القديسين المتداولة؟ ما قيمة العادات الطقسية التي نمارس؟

جوابي، في ظل رؤية متحرّكة للتنشئة، أن دورها هامّ بقدر ما يكون موقفنا منها نقديًّا، فنقرأها ونتعامل معها على ضوء التجسّد الإلهي، كما أوضحت في مطلع هذا المقال. أمّا، كما هي الحال في جوّ مأسسة التعليم القائمة، إن رأينا في هذه المرجعيات مجرد "جوامد" على المؤمن أن يتّبعها بعيدًا عن كل جهد نقدي، معطّلاً العقل باسم الإيمان، فهي مضرّة للغاية لأنها تجعل المؤمن يتعامل مع القداسة على أنها سحر، ومع المحبة على أنها واجبات أخلاقية، ومع الصلاة والصوم على أنهما فريضتان.

قيمة مرجعياتنا رهن بالطريقة التي نتعامل بها عملاً وكلامًا، ما يقودني إلى الكلام على موضوع الخطاب التعليمي.

لغة الخطاب التعليمي

كل التعامل مع اللغة شائك للغاية. فهل ينطوي التبادل الكلامي على المدلول نفسه عند طرفَي الخطاب؟ ليس صحيحًا أن الكلام الذي نستعمله واضح إن في الكتب أو في الوعظ. أبسط الكلام بحاجة لتوضيح:

١ – ما هي المحبة؟ ما علاقتها بالمعيوش الكنسي؟ ما علاقتها بالتصرّف الشخصي؟ وإذا كنّا دعاة محبّة فكيف نفسّر تصرّفاتنا المفتِّتَة لوحدة جسد المسيح؟

٢ – ما هي القداسة؟ ماذا يعني الرسول بولس بدعوته المؤمنين قدّيسين؟ ماذا يقصد القديس يوحنّا الذهبي الفم بدعوة "القدّيسين" للمناولة؟ كيف يتماشى هذا مع كلامنا عن قداسة مستحيلة مربوطة بالخوارق والعجائب، كما لو أن القديس هو من لا يخطئ في حين أنّه مَن يتوب؟

٣ – ما هي الكنيسة؟ ماذا نعني بهذا الأفهوم؟ أجماعة المؤمنين؟ أمجموعة الإكليركيين؟ هل نسلك وفق مقتضيات الإيمان في هذا المجال؟ هل نعلِّم دومًا بأمانة كلّية لمضمون المعتقد؟ هل تعابيرنا واضحة كفاية لتفي بالغرض؟

٤ – ما هي القوانين في الكنيسة؟ أمجموعة قرارات إدارية؟ أمستلزمات ترجمة المحبة في الواقع؟ مهما يكن الجواب، هل نسلك بمقتضاه ليأتي تعليمنا عنه مُقْنِعًا؟ وهل نحمِّل كلامنا حول الأنظمة والقوانين هذا البُعد الحياتي؟

٥ – ما هي الأسرار في الكنيسة؟ ألا نتكلّم عليها كسِحْر؟ كيف نربط تعليمنا عنها كلامًا وعملاً بمقتضيات النموّ في المسيح؟

كلامي هذا ينسحب أيضًا على المفردات وليس فقط على الأفاهيم. ما هو الجسد؟ ما هي النفس؟ ما هي الروح؟ ما هي الحياة؟ ما هو الموت؟ ما هو العالم؟ ما هي الدنيا؟ ما هي خصوصية استعمالنا لهذه التعابير وكيف نوصل مدلولها للعالم اليوم؟ تشكِّل هذه الأسئلة مسألة هامّة مطروحة على ضمير الكنيسة، ليس لأننا لا نفهم التعابير بل لأن فهمنا لها مرتبط ليس بتعليم الكنيسة وحدها بل بتعاليم أخرى كثيرًا ما تغرِّبنا عن الإيمان. لذلك ضاع الخطاب التعليمي بين الفلسفة والتَّقَويات حتى يكاد المؤمن اليوم لا يعي من إيمانه ومستلزماته الحقيقية إلاّ القليل. وليس ما سبق من فصول هذا الكتاب إلا مجموعة أسئلة إن دلّت على شيء فعلى هذا الضياع في التعليم.

أصبح التعليم عندنا مطرقة معرفية بدل أن يكون بناءً للمؤمنين في يسوع المسيح.

ألتعليم نتاج خبرة معيوشة وعقل مستنير

فالتعليم، كما قلت في البدء، وكما اختبرت الكنيسة الأولى، نتاج خبرة معيوشة تترافق مع عقل يستنير. فلا العقل يدرك الحقيقة الإلهية دون تواضع (أليست الكبرياء في النهاية فحوى الخطيئة في الفردوس) ولا الحياة تستطيع وحدها أن تصل إلى ملء قامة

المسيح. فالإنسان بكليّته مدعوّ إلى العرس الذي ذكره الرب في مثل العذارى العشر.

فهل من سبيل لتستقيم التنشئة عند مستقيمي الرأي؟ طبعًا، لا شيء مستحيل علينا إذا ما سلكنا درب التواضع وقوّمنا مسيرتنا لنعود إلى أصالة حيّة في مجال تنشئة المؤمنين في المسيح. لكن هذا يتطلّب منا:

١ – أن نعي، فعلاً لا كلامًا فقط، أهميّة انعكاس الحياة على معرفة المؤمنين إيمانَهم والعكس بالعكس. وهذا يتطلّب إعادة نظر لحياة رعايانا ولطرق التعامل ضمن الجسم الكنسي ولمواجهة الكنيسة واجباتِها تجاه العالم.

٢ – إعادة اكتشاف لمعنى التعابير المستعملة بتوضيح معناها ومستلزماته السلوكية، ليس من حيث الأخلاق بل من حيث المواقف الفذّة التي تطلبها المحبة ويؤكّد عليها إيماننا بالتجسد.

٣ – السعي لرفع الالتباس القائم حول دور العقل في العملية التعليمية، والعمل على أن يستنير العقل ويبقى على نقديته حتى لا تَفْتُر الرسالة التي يحملها إنجيل السيّد.

هذه ورشة عمل كبيرة للغاية، تقوم على أكتاف المؤمنين جميعًا، ويمكن أن تبدأ من أيّ موضع[٩]. فالله، القادر على أن يجعل من الحجارة أبناءً لإبراهيم، سيقوّي الضعيف في ضعفه إذا ما لبس السيّد وأطاعه. فلا يقولَنّ أحد أنا أنتظر!!! بل ليَسْعَ كل مؤمن، حسب موهبته، ومع من أحبوا الرب، فيحتكموا إلى الإخوة من رعاة ومؤمنين، واضعين كلام الربّ نصب أعينهم. ألم يقل لنا أن لا نخاف وأنه يكون معنا في المحاكم؟...

٩– كان من الممكن طبعًا الدخول بالتفاصيل وإعطاء بعض الأمثلة. لكن لن يكون هذا الجهد نافعًا فعلاً إلاّ إذا اقترن بنقاش يضع إشكالية التنشئة هذه ضمن إطارها الحياتي والمعرفي، مفصّلاً ما هو عائد للسنّ، وما هو عائد للخبرة، وما هو عائد للعلم إلخ. ومن الضروري ربما أن يلتقي البعض لنقاش مطوّل لهذه الأمور غير آبهين بالزمن والمستحقّات الإدارية حتى يبقوا على صفاء ذهن لا بدّ منه حتى يستقيم في كنيستنا أي تخطيط تربوي.

من كوارث مأسسة التعليم أننا اقتنعنا بما يُعْطى لنا ونسينا أن لكل منا أن يصرخ مع النبيّ: "غيرة بيتك أكلتني"! نحن الكهنوت الملوكي الموعود، نحن قوم أنبياء... ليس لنا أن نستقيل. ليس فوق رأس أيّ منا سوى كلمة الرب وحكم الجماعة المؤمنة، فلا ندع نظرة غربية وغريبة عن التعليم في الكنيسة تغيّر ما ورثناه في استقامة الرأي من مناخ حرية وتحّرك. هكذا نزعزع مأسسة التعليم، هكذا نوقف فعل المطرقة، هكذا نعيد شعب الله جماعةَ مَن "اجتمعوا إلى واحد" هو ربُّهم.

القسم الثاني

يهدف هذا القسم الثاني من الكتاب إلى إعطاء بُعْد عملي للطروحات الواردة في القسم الأوّل منه. حتى لا يخيَّل لأحد أن ما جاء من تصوّرات هو مجرّد حنين لمقولات نهضوية ابتعدنا عنها وما نزال، ونزولاً عند رغبة بعض الإخوة، رأيت أن أكمل الطرح بزيادة الفصلين اللاحقين.

يأتي الفصل الثامن كترجمة لما جاء في الفصل الخامس، وهو جهد جماعي ساعدني فيه العديد من الإخوة عند تطارحنا موضوع الخدمة في الكنيسة. وهو يحمل مشروعاً مستقبلياً لترتيب البيت الكنسي بتناغم مع الكتاب العزيز وضرورات خدمة الكلمة.

أما الفصل التاسع، فهو محاولة لتلّمس طريق جديدة في التعاطي مع موضوع التنشئة في المسيح، ويأتي موضِحاً ما جاء في الفصل السابع، فاتحاً المجال لورشة عمل لاهوتية وتربوية كبيرة في الكنيسة.

رجائي أن يأتي هذا العمل مكمِّلاً لجهود كثيرة بَذلها كثيرون على مدى سنوات طوال، و لم يكن لي إلاّ شرف طرحها على ضمير المؤمنين اليوم، عملاً بقول النبي: "غيرة بيتك أكلتني".

ألفصل الثّامن

مَرجُوّات حول الرعاية في أنطاكية اليوم

تشكو الرعاية في أنطاكية اليوم من انعدام الفعّالية على أكثر من صعيد، إذ اقتصرت في كثير من الأوقات والأماكن على تأدية الخدم الطقسية على أنواعها، وعلى بعض الزيارات "الرعائية" في المواسم، وعلى بعض أعمال الرحمة المدعوّة "خدمة اجتماعية". أوجد هذا الواقع تناقضًا عمليًّا بين التصوّر النظري لحياة شعب الله وبين الواقع المعيوش.

فحياة شعب الله هي العيش في حضرة الله الدائمة، انطلاقًا من الأوجه التقديسية في الجماعة المؤمنة، وصولاً إلى التعبير عن الرجاء الذي فينا شهادةً لمحبة الله للعالم: فلا الأداء الطقسي يستنفد الأوجه التقديسية، ولا الكلام يستنفد الشهادة في العالم. في كلتا الحالتين نواجه خطر تقزيم الرسالة المسيحية إلى عمل مسرحي وخطابي لا علاقة له بالتجسّد الإلهي. غاية الرعاية هي خلق الأطر التي تساهم في جعل هذه التصوّرات قابلة للتطبيق في الحياة اليوم، وهذا لا يكون ممكنًا إلا بقدر ما نبذل من وعي وعزم وإرادة في التزامنا أمانتنا للرسالة الملقاة على عاتقنا كمسحيين.

تهدف هذه الورقة إلى خلق تيّار تشاوريّ للردّ على ما يلي: هل الرعاية مجرّد تأدية "خدمات رعائية"، أم هي مشروع متكامل يسخّر كافّة المواهب الموجودة في الجماعة حتى ينمو كل من أفرادها في المسيح؟ كيف نترجم عدم الاكتفاء بما عهدناه من ردود نظرية، بل نتعدّاه إلى طروحات عملية تطال: أوجه التعبير عن ماهية الرعية، وتوصيف الخدم الرعائية، وتحديد مهامّ الخدّام كل حسب مواهبه.

لذلك، في ما يلي تصوّرات تصلح لتكون فقط ورقة عمل لورشات بحث محدودة من شأنها أن تلقي ضوءًا جديدًا على مقاربة الشأن الرعائي في أنطاكية اليوم.

المحاور المقترحة تطال كافّة الأوجه المتعلّقة بالرعاية بشكل مباشر، كما سبق وتكلّمنا عليها، علمًا بأن هناك شؤونًا أخرى تطال أوجهًا إدارية (الأنظمة والمجالس مثلاً) لن نتطرق لها في هذا المجال.

أ – **المحور الأوّل** يطال أساس الرعية وشكلها، مركّزًا على الرعية وحجمها، وترابط الرعايا إحداها بالأخرى في إطار جغرافي ضيّق. طبعًا، ليس الشكل هو المقصود، بل علاقة الشكل بالفاعلية الرعائية.

حجم الرعية وإطارها الجغرافي الواضح هما أمران هامّان جدًّا ليتمكّن الراعي من معرفة خرافه ومن حسن إدارة المجموعة البشرية المؤتمن عليها. لذلك فلا بدّ من ما يلي:

١ – التعرّف إلى وضع الرعايا في أنطاكية اليوم وإلى ما يقول الكهنة عن طاقتهم الفعلية للخدمة المرجوّة، بغية تحديد الحاجة الرعائية كما يرجوها الكهنة والمؤمنون معًا.

٢ – خلق القناعات التي تربط فاعلية الرعاية بعدد العائلات التي تضمّها الرعية، والاقتراح أن لا يتجاوز هذا العدد المئة.

٣ – رفع عدد الرعايا في البلدات والمدن لتلبّي هذا التصوّر مع ما يتطلّبه ذلك من تغيير جذري في الرؤية لكاهن الرعية ونوعية "تفرّغه" للخدمة، ولبيت العبادة أيضًا.

من ناحية أخرى، ولأنه يستحيل أن تُحْصر بعض الخدمات في إطار ضيِّق (نظرًا لنوعيتها ولنوعية المواهب التي تتطلّبها) لا بدّ ربّما من تصوّر إمكانية وجود مساحات جغرافيّة أوسع تكون بمثابة تجمّع رعايا تشكّل في بعض الأوجه وحدة خدماتية متكاملة. لذا فلا بدّ من التفكير بـ:

١ – استعادة خبرة كهذه عرفتها الكنيسة قديمًا وتعرفها اليوم أبرشيتنا في شمالي أميركا.

٢ – تقسيم الأبرشيات الكبيرة إلى أسقفيات على الأرض (كما في أبرشية عكّار اليوم) والأبرشيات الصغيرة والأسقفيات إلى وحدات أصغر متى لزم الأمر، وذلك للحاجات الرعائية التي سنتلمّسها لاحقًا.

٣ – تطوير القوانين من حيث الرؤية كما من حيث النصوص لتساهم في هذا التغيير الجذري لمقاربة الشأن التنفيذي العائد للأطر الرعائية.

ولأن الرعاية تنطلق من هاجس التقديس والنموّ في المسيح وتصبّ فيهما، فلا بدّ من ربط موضوع الرعاية بالشأن الطقسي. فالنصوص وتنظيم الخدم والترتيب العام كلّها شؤون بحاجة إلى إعادة نظر تحمل الهاجس الرعائي في صدارة أولوياتها. هذه الأمور تتطلّب توسيعًا لا يمكن أن يدخل في إطار هذه الورقة، وهو بحاجة إلى طرح تفصيلي أوّلي يصلح ليكون مجال تأمّل ونقاش على الصعيد الأنطاكي. لكن، وحتى في هذه العجالة، لا بدّ من ذكر إلْحاحيّة ما يلي:

١ – دراسة نوعية لفحوى النصوص الحالية (والتي هي في أكثرها منظومة على أسس الشعر اليوناني)،

٢ – ترتيب للطقوس (التيبيكون) يؤهّلنا لخدمة رعائيّة أفضل في عالم تغيّرت فيه كل معايير الزمن والعمل، فلا يكون التريب الرعائي مماثلاً للترتيب الرهباني،

٣ – تنظيم للخدم يخفّف من متحفيّة بيزنطية ويقوّي عنصر المشاركة، فيعود سرّ الشكر مركز إقامة الأسرار، فتُرْبط حياة الأشخاص التقديسية بانتمائهم الرعائي.

ب – **المحور الثاني** يركّز على الخدمات في الجماعة وعلاقتها بالمواهب الكنسية

وتكامل خدم أصحاب المواهب وتناغمها، وتربيتها، في رعاية الجماعة التي تؤلّف جسد المسيح: الكاهن، الشمّاس، النبي، المرتّل، المعلّم، الواعظ إلخ... فالكلمة المفتاح في هذا المجال هي كلمة مواهب. فعلينا أن نعي اليوم في الكنيسة معنى هذه الكلمة على الصعيد الإجرائي، وما تحمل من زخم لاهوتيّ في رؤيتنا للكنيسة وللإنسان ولسرّ الميرون بنوع خاصّ، فيصبح التعامل مع مضمونها أساس فرز المؤمنين للخدم في الكنيسة.

يؤكّد بولس الرسول، في معرض كلامه على الخدم، على تكامل المؤمنين انطلاقًا من المواهب المعطاة لكلٍّ منهم، مواهب الروح المسكوب على كل شخص منهم من خلال عيشه في الجماعة (علمًا أن هذا لا يعني أبدًا أنه لا يمكن أن تتعدّد المواهب عند شخص واحد، بل يعني أنه لا يجوز أن تَختصر موهبةٌ ما كلَّ الخدم). لذلك فالكنيسة، في الرؤية الشرقية، هي مواهبية وشكرية في آن معًا: فالجماعة لا تلغي الأشخاص بل تطلقهم إلى الخدمة، ولا الأفراد يوجَدون بالاستقلال عن الجماعة التي تلهمهم وتتابعهم وتحضنهم. ولئن بدت النظرة إلى كل خدمة من الخدم على شيء من الوضوح، إلاّ أننا بحاجة لشيء من التوصيف نقتنع به فيكون بمثابة مرجعية "عملية" نحتكم إليها قدر الإمكان. في ما يلي بعض المقترحات التي من شأنها أن تطلق البحث في هذا المضمار.

١ – الكاهن، وهو إمام سرّ الشكر، ولذا فهو يمثّل وحدة الرعية ويدير شؤونها بمساعدة المؤمنين الذين يؤلّفون مجلس الرعية ولجانٍ أخرى تستدعيها الرعاية. موهبة الكاهن "الإدارة" ليس بمعناها الوظيفي بل بمعناها الإجرائي، لأنّ عليه أن يحسن التقاط المواهب وتوظيفها وتنسيقها. فهو يميّز المواهب، ويفتقد الخدّام، ويحتضن كافّة العاملين في رعيته، دون أن يحلّ محلَّ أحدٍ منهم. وهو مسؤول عن ذلك تجاه الأسقف وتجاه الإخوة. لذلك، وفي وضع نحتاج فيه لنقلة نوعية من حيث شخصية الكاهن اليوم، فنحن نتطلّع إلى كاهن:

أ – عنده موهبة التدبير والتمييز،

ب – متزوّج، أحسن تربية عائلته،

ج – عامل، يشهد له زملاؤه بحسن السيرة والاستقامة وروح التعاون،

د – تقيّ وعارف بالإيمان، قادر على أن يدافع عنه،

ه – أكمل الخامسة والثلاثين من العمر على الأقلّ،

و – يسمح له عمله ووضعه العائلي بالانصراف إلى الرعاية بين ساعتين وثلاث ساعات يوميًّا إذا اقتضت الضرورة،

ز – برهن، في نشاط رعائي سابق، عن قدرته على العمل بتعاون وتواضع من دون التهاون في الأسس والمواقف المبدئية.

٢ – الشّماس، وهو مساعد للكاهن على أداء المهامّ الرعائية الخاصّة بالفقراء والمحتاجين والأرامل. فليس هو في منزلة بين منزلتين بانتظار أن يصبح كاهنًا. لذلك فالشموسية، للذكور كما للإناث، تتطلّب من المؤمن أو المؤمنة أن يكون:

أ – متزوجًا، أحسن تربية عائلته،

ب – قد أكمل الخامسة والثلاثين من العمر على الأقلّ،

ج – عاملاً، يشهد له زملاؤه بحسن السيرة والاستقامة وروح التعاون،

د – يسمح له عمله ووضعه العائلي بالانصراف إلى مهامّه الرعائية بشكل كافٍ حسب حجم الرعية،

ه – تقيًا وعارفًا بالإيمان، شديد الحساسية لكلّ ما له علاقة بالشأن الاجتماعي.

٣ – النبيّ في الرعية، وهو من يفتّش باستمرار عن إعلاء شأن الكلمة الإلهية، مذكِّرًا دومًا وأبدًا بمستلزمات الشهادة للمسيح ولرسالته الخلاصية في كل الظروف. لا يمكن أن تحصر النبوّة بسنٍّ أو بأهلية سابقة، لكن لا بدّ وأن تتوفّر هناك معطيات تسمح للرعيّة، بإمامة الأسقف، بأن تشهد لـ:

أ – المعرفة فلا يكون الكلام هذيانًا،

ب – احترام الخطّ الكنسي كما عبّر عنه التراث المستقيم الرأي،

ج – التواضع الذي من دونه لا يمكن أن يرتفع الإنسان إلى ربّه.

٤ – المرتّل مساعد في حسن تأدية الخدم الطقسية. فهو يمثّل دور الجامع ترتيلاً وقراءةً، حتى تأتي "آمين" الجماعة تعبيرًا عن فهم للمضمون الصلاتي. لذا فهو:

أ – عارف بالأصول الموسيقية، يستخدمها ببساطة تساعد على الصلاة،

ب – ملمّ باللغة العربية، فتأتي قراءته أمينة للنصّ ومساعدة على الفهم،

ج – تسمح له موهبته بأداء الترتيل والصلاة بوَرَعٍ،

د – متواضع فيكون قائدًا للجماعة في الصلاة وليس مطربًا،

ه – متدرّب على الأصول الطقسية حسب ما تقتضيه الترتيبات الأنطاكيّة.

٥ – الواعظ– وهو ليس بالضرورة كاهن الرعية– مسؤول عن نقل الإيمان المسكوب في الكتاب المقدس والعقائد وتاريخ الكنيسة. لذلك فهو:

أ – عارف بالإيمان، مطّلع على الخصوصيات العائدة إلى استقامة الرأي،

ب – ممارس للصلوات، تقيّ ومشهود له بين المؤمنين بحسن السيرة،

ج – ملمّ باللغة العربية،

د – قادر على نقل الفحوى الإيمانيّة ببساطة وصدق ووضوح،

ه – مثقّف، مطّلع على تحدّيات الفكر الحديث وعلى مختلف المقاربات تجاهه.

٦ – المعلّم، وهو مسؤول عن نقل الإيمان المسكوب في الكتاب المقدّس والعقائد وتاريخ الكنيسة، وذلك من خلال قنوات تعليمية موَجَّهة إلى أعمار مختلفة في الرعية. يسهر المعلّم على نوعية هذا التعليم بإشراف مجلس الرعية ولجانه المختصّة. لذلك، فهو:

أ – عارف بالإيمان، مطّلع على الخصوصيات العائدة إلى استقامة الرأي،

ب – ممارس للصلوات، تقيّ ومشهود له بين المؤمنين بحسن السيرة،

ج – ملمّ بالشأن التربوي،

د – قادر على التحليل النقدي لانتقاء أفضل سبل نقل الفحوى الإيمانيّة ببساطة وصدق ووضوح،

ه – مثقّف، مطّلع على تحديات الفكر الحديث وعلى مختلف المقاربات تجاهه.

٧ – المدبّر، وهو من تسلّم مهامّ الإشراف على المال في الجماعة، تخطيطًا ومتابعةَ تنفيذ. إنّه يرعى الشأن المالي (دون أن يكون مسؤولاً ماليًّا مباشرًا) بتوجيه الأسقف وبموجب قرارات المجالس المختصّة (يمكن لهكذا شخص أن يكون مستشارًا لمجلس الرعية وعضوًا طبيعيًّا في لجنته المالية)، لكن بوعي لدور المال في تأمين حسن سير الرعاية. لذلك فهو:

أ – ملمّ بالشأن المالي من الوجهة التقنية،

ب – ذو حسّ رعائي مرهف ليتمكّن من حسن التمييز واقتراح القرارات المناسبة لحسن الرعاية،

ج – غيور، متواضع، مستعدّ للتضحية بوقته في سبيل الخدمة.

أمّا إذا قلنا بنظام تجمّع للرعايا، فهذا يعني أن هناك "المتقدم" أو من أسمته الكنيسة أيضًا الخورسقف، وهو يعمل بالتنسيق مع الأسقف ومع الكهنة الإخوة ليأتي العمل بلياقة وترتيب. لذلك فهو:

أ – قد برهن أثناء خبرته الرعائية عن أهليته للقيادة،

ب – مارس الرعاية مدّة من الزمن كافية ليستطيع إخوته الكهنة أن يحكموا على ذلك،

ج – مقبول من قبل الكهنة الذين سيتقدّم عليهم بموافقة الأسقف وبركته.

أخيرًا وليس آخرًا، هناك ربّما العديد من الخدمات المستجِدّة التي تتطلّب مواهب خاصّة لم نشعر بالحاجة إليها سابقًا في تاريخنا الكنسي، والتي لا بدّ من أن تدخل في مجال تأمّلاتنا أثناء البحث بالشأن الرعائي المبتغى. فقد غيّر عالَمُنا الحديث نوعَ الحاجات التي اعتدنا عليها، وبالتالي نوع الخدمات ونوعية المواهب التي علينا أن نلتقط. لذا فلا بدّ لنا أن نتواضع ونستلهم الروح، فنحدّد الخدمات الجديدة التي يجب أن تظهر بيننا والمواهب التي تناسبها، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

أ – **فالإعلامي** هو المبشِّر الجديد الذي بحسن استعمال التقنيات الحديثة، والذي، بإلمامه بالشؤون الكنسية، وبخبرته في الرعية، يستطيع أن يبقي الرعية بتفاعل مع العالم الذي تشهد فيه لمسيحها،

ب – **والمفكّر** هو العالِم، التقيّ، المتّزن، الذي تسمح له خبرته وموقعه في العالم بكشف الفكر المستقيم الرأي للعالم.

وفي كلتا الحالتين، هذه خدم شهادية نؤدّيها في العالم، تؤكّد على مسؤولية الرعية "الكونية"، كونها تملك بحدّ نفسها ملء الكنيسة.

ج – المحور الثالث يركّز على نوع آخر من الخدمات وهو خدمات "جَماعيّة": الإرشاد العائلي، الإرشاد الطبي، الإرشاد الاجتماعي إلخ... فالتغييرات الاجتماعية والتقدّم العلمي في أكثر من مجال، أوجدت على الصعيد الرعائي والعلائقي حاجات لم تكن موجودة من قبل. فالحاجة لتنظيم خدمات في أطر الإرشاد النفسي والتوجيه التربوي والتدريب الصحيّ والوعي الاجتماعي ملحّة، وانعكاساتها السلبية على المؤمنين واضحة لكافّة العاملين في هذه الحقول. نظرًا إلى نوعيّة الاختصاص المطلوبة في هذه الميادين لا بدّ وأن تنظّم هذه الخدمات في لجان تتّسع مهامّها لتطال أكثر من رعية في آن.

لذلك علينا منذ الآن وضع أطر تنظيم هذه الوحدات الرعائية المشرفة على هذه الخدمات. فتضمّ هذه الوحداتُ الأخصائيين وتعمل من خلال الرعايا وبالتنسيق مع الكهنة والشمامسة والهيئات الأخرى متى وجدت، ليشعر المؤمن بأنّ رعاية الكنيسة له تطال حياته كلَّها.

ألفصل التّاسع

اجتماع الكلّ إلى واحد

هدف الفصل

يهدف هذا الفصل إلى إعطاء مثل حول التعامل التربوي[1] مع موضوع من المواضيع الأساسية في مجال التنشئة في المسيح. تجدر الإشارة إلى أنني في ما يلي أعتمد طريقة غير مألوفة كثيرًا ويمكن أن تبدو على شيء من الغرابة والصعوبة. لكنها نتيجة تأمّل عميق ودراسات كثيرة في جميع أنحاء العالم حول العملية التربوية ككل. لذلك، أسعى إلى أن أطرح في ما يلي بديلاً عن الطريقة المعتمدة في "التعليم الديني" الكلاسيكي، رغبة مني في تسخير جديد العلوم التربوية لخدمة التنشئة في المسيح. لن يكون المهمّ تكديس المعلومات، بل العمل على إيصال فحوى الرسالة مع ما تتضمّنه هذه الفحوى من ارتباط بالحياة. لذلك فلن يكون همّي السرعة في عرض المعلومات في القوالب المعهودة، بل سأركّز على "بناء" المعرفة عند المؤمن، بناءً يربطه بخبرته من جهة وبحياته في الكنيسة من جهة أخرى، مستعملاً بتدرّج كل ما يصل إليه المؤمن من قدرات مع نموّه العاطفي والإدراكي والجسدي.

عنوان هذا الملحق "اجتماع الكل إلى واحد" وأعني به طبعًا سرّ الشكر أو ما اعتدنا

١- في هذا الفصل سأعتمد منهجية تعلّمية مبنية على المقاربة المعرفية (Approche cognitive) وذلك بناءً على قناعتي بأن هذه المنهجية هي الفاعلة اليوم في مجال بناء المعارف بناءً متماسكًا وبعيد المدى على مستوى المعلومات كما على مستوى الحياة.

على تسميته القدّاس الإلهي أو الذبيحة الإلهية. حتى أصِل إلى المبتغى كما حدَّدتُه في السطور القليلة السابقة، ينبغي لي أن أستعرض كلّ ما من شأنه أن يؤثِّر على اكتساب المعلومات بشكل صحيح وعلى جعل هذه المعلومات فاعلة في حياة المؤمن. هذا طبعًا أساسيٌّ بالنسبة لنا معشر المسيحيين بسبب ارتكاز إيماننا على التجسّد الإلهي. لكنه أساسيّ أيضًا وبشكل كبير على الصعيد التربوي، حيث إن المعارف لا تُفْصَل عن الأفعال بل هي جميعًا متداخلة دومًا. المعرفة تترسّخ بقدر ما الأفعال تقوى وتتعمّق، وذلك بشكل جدليّ لا يتوقّف.

لذا، في ما يلي، سأقسّم العرض إلى:

أ – مدخل يفسّر سبب استعمالي هذا العنوان، ويعرض الأهداف التربوية،

ب – تصوّر لتطوّر الأفاهيم (Concepts) المتعلّقة بالموضوع مع السنّ،

ج – الخبرات المعيوشة التي لها علاقة مباشرة بالمعلومات المرتبطة بالموضوع، والمعارف التي هي وراء القصد أيضًا. سأنهي هذا بمَثَل يمكن أن نستلهمه في النقاش كما في تطوير أبحاث عملية في مجال التنشئة في المسيح.

ألعنوان والأهداف

ألعنوان وأهميته

عنوان أيّ موضوع عائد للتنشئة في المسيح، يحمل في طيّاته خصوصية هذه التنشئة. ليس المهمّ أن يكون مألوفًا في الاستعمال، خصوصًا إذا كان هذا الاستعمال مبهمًا. المهمّ هو أن يدلّ العنوان على الحركية التي تتطلّبها هذه التنشئة من ناحية، وعلى المضمون الفعلي للموضوع من ناحية أخرى. لذلك فعبارة "اجتماع الكلّ إلى واحد" هي:

– لغة بسيطة،

- تتضمّن "حركية" أي مساهمة من قبل المتعلِّم (على صعيد الذهن كما على صعيد الجسد) تجعله يشعر بأنه طرف أساسي في هذه العملية المعرفية،
- تستند إلى مرجعية كتابية واضحة، من شأنها أن تضع الموضوع في إطاره التربوي الأصيل.

استبعدت عبارة "سرّ الشكر"، التي، رغم الحركية الواردة في تعبير "الشكر"، لا تخلو من مخاطر هي:

- عدم وضوح توجهّات عملية الشكر (مَن يَشْكُر؟ من يُشْكَر؟ علامَ الشكر؟)
- الإبهام المتعلّق بكلمة "سر" من حيث ارتباطها بالمدلول اللاهوتي الشرقي[٢]،
- الخلط القائم لغويًا بين Sacrement و Secret و Mystère في التعبير العربي. سيأتي وقت يتضح فيه للمؤمن الفرق، لكننا نتوجّه أيضًا للصغار، وعلينا أن نحافظ على الوضوح في التعابير.

استبعدت أيضًا تعبيري "القدّاس الإلهي" و"الذبيحة الإلهية" نظرًا إلى عدم وضوح هذين التعبيرين على الصعيد الدلالي.

- الرجوع إلى النعت "الإلهي" يتطلّب نضوجًا تجريديًا لا يسهل اكتسابه في مطلع العملية التعليمية،
- كلمة "قدّاس"، كما كلمة "ذبيحة"، لا تحملان أيّ مدلول معرفي بالنسبة للمتعلّم، ولذلك فضّلت تجنّبهما.

هذا لا يعني أننا لن نبدأ في وقت ما باستعمال هذا التعبير أو ذاك، أو أن لا نردّ على أسئلة تَرِد حول المقصود بهما، لكن يكون هذا باستمرار بالرجوع إلى تعبير أساس

٢- من المؤسف فعلاً أن نكون في هذا المجال قد اعتدنا المقاربة الغربية لمفهوم الأسرار دون أيّ فكر نقدي مبنيّ على التراث الشرقي.

يحمل كل الزخم الذي هو وراء التعبير الكتابي الأصيل: "اجتماع الكلّ إلى واحد". فما هي الأهداف التربوية الكامنة وراء هذا التعبير، والتي تشكّل المضمون المعرفي المطلوب؟

الأهداف التربوية

المقصود بالهدف التربوي، هنا، مجموعة المعلومات والمهارات والأبعاد العَمَلانية (opérationnels) التي من المتوقّع أن يمتلكها المتعلّم في نهاية العملية التأهيلية. والهدف التربوي العامّ الذي هو المحصّلة النهائية لتأهيل ما، ينقسم إلى أهداف خاصّة تتعلّق عمومًا بالسنّ أو بأقسام الموضوع. وضوح الهدف العام والأهداف الخاصّة هو الذي يؤسّس لعملية وضع المحتوى وليس العكس. فأيّ تغيير في الأهداف يحتّم تغييرًا في المحتوى. ومن شأن تحديد المحتوى قبل وضع الأهداف التسبّب بضياع في العملية التربوية ككلّ[٣]. والأهداف الخاصّة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالهدف العامّ: فهي التي بتكاملها وتراتبها تجعل تحقيق الهدف العامّ ممكنًا.

فما هو هدف التنشئة في المسيح الواقعة تحت عنوان "اجتماع الكلّ إلى واحد"؟ الهدف هو جعل المؤمن الناضج يتعامل معه كـ:

- أساسي لبلورة علاقته بالله من خلال علاقته بالجماعة، تكاملاً وخدمة،
- إطار صالح لمعرفة متزايدة حول الكنيسة والإلهيات عمومًا،
- مجال التعبير عن محبته للإخوة وعن وحدته معهم كجسد المسيح،
- منطلق للشهادة الحقّة في العالم للإيمان الذي يحرّكه،

٣- المحتوى هو على العموم وصفيّ، بينما الأهداف إجرائية وعَمَلانية. فمتى وُضِع المحتوى الوصفي قبل الهدف، تحوّلت المعرفة إلى "ببغائية" ذهنية.

- مصبٌّ لخبراته في العالم يضعها في تصرّف الإخوة.

أمّا الأهداف الخاصّة فسترد لاحقًا في جدول خاصّ.

تطوُّر الأفاهيم[٤] (concepts) مع السنّ

توقّف التربويون كثيرًا، في النصف الأخير من القرن العشرين، عند موضوع فعّالية عملية التأهيل الجارية هنا وهناك. رغم الأهمية العملية لتبنّي مبدأ "الأهداف" كأساس تنفيذيّ للعملية التعلّمية، إلا أنه كان من الواضح لهم أنها لا تكفي، وأنها بحاجة إلى أن تأتي ضمن سياق تربويّ مبنيٍّ على فكرة النضوج الإدراكي المتنامي عند المتعلّم. لذلك تكامَلَ العمل الإجرائي، على أساس الأهداف، مع المقاربة المعرفية القائمة على نموِّ المتعلِّم[٥]. وهذا النموّ يأخذ مجراه بناء على خبرة المتعلّم، من جهة، وما يربط هذه الخبرة بالمعلومات التي يكتسبها تدريجيًا، من جهة أخرى. هذه الخبرة وهذه المعلومات تتكامل في ما نسمّيه الأفاهيم، وهي جمع أفهوم أي concept.

فعلى سبيل المثال لا الحصر "الأكل" أفهوم لأنه يمكّننا من تحديد:

- الوضعيات التي نأكل فيها، الوسائل التي نستعملها للأكل،
- العمليات المعرفية التي ترتبط بالأكل، وهي ذات طابع بيولوجي وكيميائي بنوع خاصّ.
- آليّة الأكل من حيث استعمال أعضاء الجسد المختلفة لهذا الغرض.

٤- والمقصود بسأفهومز هنا التكامل بين الإدراك ومستلزماته العملية. أستعمل كلمة أفهوم عوضًا عن مفهوم لأن هذا الأخير لا يحمل من وجهة النظر التربوية مدلول "الفعل" أي العمل كما هي الحال في تعبير "أفهوم".

٥- طبعًا، من السهل تجاهل هذا الأمر كلّيًا والاكتفاء بالطريقة الكلاسيكية القائمة على العرض وعلى استعمال كلمات غير "مفهومة"، وعلى طوباوية تقوية لا تربط التنشئة بالمسيح بالحياة. لكنني آثرت عكس ذلك، حتى أفتح للمهتمّين نافذة جديدة للبحث في هذه الأمور بشكل جديد وبعيد المدى.

الطفل يأكل دون أن يعي أنه "يمارس" أفهومًا معينًا. لكنه، مع تطوره الإدراكي، يعي، **بالفعل كما بالمعلومات**، كل ما هو مرتبط بموضوع الأكل، فيشكّل إذّاك أفهومًا يسيطر عليه البالغ سيطرة تامّة على الصعيد المعرفي.

ندخل هنا إذًا في مجال الأمور التربوية الأكثر تعقيدًا خصوصًا وأنّ الاختصاصيين لم ينتهوا بعد من دراسة هذه المواضيع في الحقول التربوية كافةً، فكم بالأحرى في مجال التنشئة في المسيح والتي هي أحد الحقول التي لم يلجها العلم التربوي المعاصر إلاّ قليلاً جدًّا[٦]. وصف هذا التطوّر يتطلّب شيئين متكاملين:

– مسح الأفاهيم التي هي معنيّة مباشرة بالموضوع،

– دراسة تطوّر اكتساب هذه الأفاهيم مع السنّ.

ما هي الأفاهيم التي تدخل في موضوعنا هذا؟

أ – الأكل ويرتبط "شكليًّا" في موضوعنا بعملية المناولة، ويعبّر إدراكيًا عن فكرة النموّ والحياة.

ب – الجسد ويرتبط "شكليًّا" بالحركة أثناء الأداء وبالترتيل وبرؤية الأيقونات، كما يرتبط إدراكيًّا بتكامل "فعل" أعضائه من أجل حياة الكلّ.

ج – الشركة وترتبط "شكليًّا" بالعطاء وبتقاسم الموجودات وبالاهتمام بالفقراء والمسنّين والمرضى إلخ، وتعبّر إدراكيًّا عن فكرة التعاضد بين أعضاء الجسد الواحد.

د – الجماعة وترتبط "شكليًّا وإدراكيًّا" بـ "اجتماع الكل إلى واحد" أسبوعيًا فيحدّد هذا الاجتماع "هويتهم".

ه – العالم ويرتبط "شكليًّا" بذكره بالصلوات وبالتزام شؤونه من خلال عمل

٦– لا أقصد هنا أنه ليس من أعمال تربوية هنا وهنالك، لكن أقصد التطوّر المعرفي الذي دخل عالم التربية في نهاية القرن العشرين، محدثًا في التربية ثورة بكلّ معنى الكلمة.

الأفراد والجماعة في خدمته، وهو ينتج إدراكيًا من استيعاب المؤمنين لدورهم في مدِّ العملية الخلاصية.

ملاحظة:

١ – رُبَّ سائل عن موقع "الألوهة" في هذا التعداد. الجواب هو أن الكلام على الله ليس خاضعًا لأية عَمَلانية (opérationnalité)، إنما هو مجال كشف يأتي مع نموّ المؤمن في المسيح. يشدِّد التقليد الشرقي على أنّ هذا النموّ مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالوعي المتزايد لانتماء الشخص إلى الجماعة الحيّة المسمّاة "كنيسة" وبصورة مصغَّرة "الرعية". من هنا أنّ "الوجود – المشاركة" في هذا الاجتماع الأسبوعي يتخطّى "الشكل" ليأخذ بُعْدًا حياتيًا في الممارسة اليومية. وهكذا يكتشف المؤمن الحضور الإلهي متخطّيًا نفسه تدريجيًّا ليصل إلى الالتصاق بالله.

٢ – كما أنّني لم أُدْخِل، وعن سابق قصد وتصميم، الصلاة كأفهوم. فالصلاة، كما قلت في الفصل الأوّل، هي حالة. لا يمكن أن نضعها في قوالب معرفية مهما سمت هذه القوالب. الصلاة سرُّ علاقة الخالق بمحبّيه، ولا تخضع للتنظيم العلمي التربوي. فهي تُكْتَسب بالخبرة وتَنْمو بالخبرة، وتأخذ هكذا طابعها الشخصي مع كلّ مؤمن. يبقى على الجماعة، انطلاقًا من "اجتماع الكلّ إلى واحد"، أن تعطي هذه الصلاة مجال التعبير عن نفسها بالمحبّة المِعْطاء.

بالعودة إلى موضوع الأفاهيم، وكما قلت سابقًا، يستند عمليًّا اكتساب أيّ أفهوم إلى خبرة معيوشة (في البيت، في المدرسة، في الكنيسة)[٧]، ويكتمل اكتسابه لاحقًا متى أدّى الإدراك إلى ممارسة مطابقة للبُعد النظري. فعلى سبيل المثال:

٧– تشكّل بالمقاربة المعرفية ما نسميه "أفاهيم بالممارسة" (concept-en-acte)، أي إن التصرف يدلّ على مضمون لم يصل بعد إلى حيّز التجريد، لكنه هامّ جدًّا لتحضير هذه المرحلة.

- عملية الأكل في المنزل، وهي عادية وطبيعية، وتشكّل مدخلاً إدراكيًا للمناولة.
- العائلة مدخل عاديّ وطبيعيّ مماثل لأفهوم الشركة.
- لا يتمّ اكتساب أفهوم الجماعة المبنيّ على هذين الأفهومين إلاّ إذا كانت الجماعة مستعدّة لأن تعيش كـ "العائلة – الشركة" التي تجتمع للأكل، لكنها في الوقت نفسه تحيا وحدتها بأشكال مختلفة. والجماعة الخاصّة التي نسمّيها الكنيسة تجتمع أسبوعيًّا إلى "الواحد" الذي هو طعام مائدتها، وتحيا بزخم هذا الاجتماع معبِّرة عن وحدتها بطرق متنوّعة.

الأمور الباقية كلُّها، والتي تتطلّب تجريدًا عاليًا، والتي فيها الكثير من التعابير اللاهوتية الدقيقة، ليست ضروريّة في أوّل المطاف. ستأتي تدريجيًّا مع نموّ طاقة المؤمن على التجريد كما على التعبير.

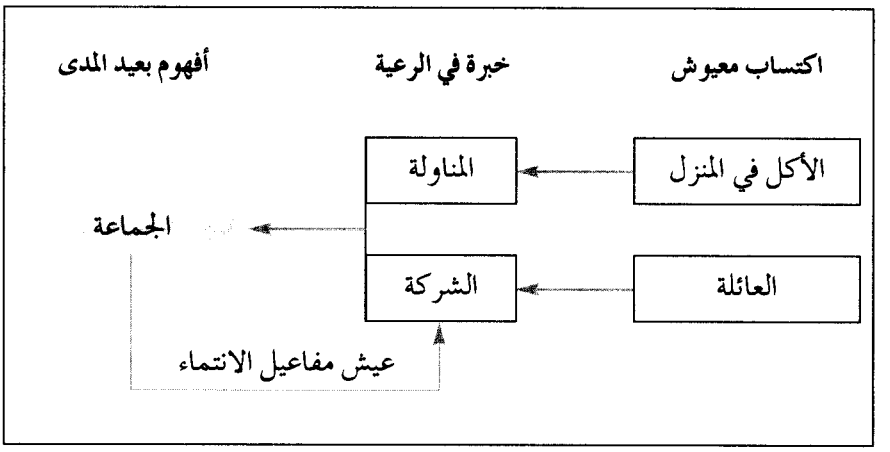

رسم رقم ١

من ناحية أخرى، سبق وقلت إن عملية اكتساب هذه الأفاهيم ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالنضوج الإدراكي الذي يعطيه التقدّم بالسن. لم تنته بعد المدرسة المعرفية من وضع المرجعيات العلمية التي تسمح لنا بتصوّر مدى القدرة على اكتساب كافّة الأفاهيم. وربّما كنا بحاجة لكثير من الوقت حتى نصل إلى أجوبة نهائية في هذه المجالات. لكن الكثير من الدراسات التي بدأت تظهر منذ Piaget وVygotski وباحثي المدرسة المعرفية تسمح لنا بوضع أطر تقريبية لهذا النماء[٨] الإدراكي، وهي في كل حال أطر غيُر جامدة وقابلةٌ لكثير من الحركية حسب البيئة المجاورة والوعي التربوي والخبرة الحياتية.

أخبرات المعيوشة التي لها علاقة مباشرة بالشأن المعرفي

لذلك فأية جدولة لتطور الطاقة على استيعاب الأفاهيم، تتزامن بالضرورة مع خبرات معيوشة تؤثّر تأثيرًا مباشرًا على التطوّر الإدراكي عند المؤمن. ففي الجدول التالي أعرض الأفاهيم المذكورة أعلاه، مع تطوّرها العامّ المرافق لسنّ المتعلِّم، وخبراته الممكنة في حياته اليومية:

الأكل	يبدأ مع سن الطفولة الأولى. يرتبط تدريجيًا بالاجتماع العائلي. يأخذ تدريجيًا بُعْد التواصل والتبادل والعطاء. ينمو تدريجيًا وعي العلاقة بينه وبين النموّ الجسدي والحياة والاستمرارية.

٨- عند الكلام على الإنسان، تقابل كلمة "نماء" على الصعيد الذهني أو العاطفي أو النفسي كلمة "نموّ" على الصعيد الجسدي. هذا مصطلح تقني لدقّة أكبر في التعابير التربوية.

الجسد	يبدأ وعي استقلالية الجسد مع سني الطفولة الأولى. يبدأ الوعي بترابط الحواسّ وتكاملها في مرحلة ثانية. يبدأ استعمال الجسد للتواصل والحصول على المعرفة في المرحلة نفسها. يأخذ الجسد أهميّة كبرى مع سنّ المراهقة. يأخذ الجسد بُعْدًا تواصليًا في نهاية سن المراهقة. يأخذ الجسد بُعْدًا تجريديًا مع بلوغ مرحلة النضوج وإمكانية التحكّم الواعي به.
الشركة	يبدأ اختبارها في البيت، والبيئة العائلية عمومًا. يتطوّر اختبارها في المدرسة والمجتمع عمومًا، خصوصًا في اللعب. يتطوّر اختبارها مع دخول مبدأ التبادل واقتسام الأشياء. تتّخذ مع سنّ المراهقة شكل التجمّعات، حيث يمارس المراهق حسّه بالمسؤولية. يتطوّر هذا الوعي بالانتماء إلى جماعة أوسع تطال أقسام المجتمع والوطن. تأخذ بُعْدًا تجريديًا مع بلوغ سنّ الشباب وإمكانية "الشراكة".
الجماعة	يبدأ اختبارها في البيت وحياته كوحدة معيشية "ثابتة". يتطوّر اختبارها في الصفّ كمجموعة حيّة "متحرّكة" ذات خصوصية. يتطوّر اختبارها في سن المراهقة وتقع في تجربة الانغلاق. يكتمل تطوّر الخبرة مع سنّ الشباب، وتترافق هذه الخبرة مع الانفتاح على المجموعات الأوسع. تأخذ بُعْدًا إدراكيًا في مرحلة متقدّمة مع نموّ القدرة على التجريد.
العالم	أفهوم العالم، أفهوم جدلي لا يدخل في خبرة مبكّرة إلا كمجهول. يبدأ التعرّف إليه في سنّ المراهقة مع تطوّر اختبار العيش في الجماعة. يصبح أكثر قابلية للتعامل مع النضوج الفكري في سنّ الشباب.

جدول رقم ١

من الطبيعي، وتماشيًا مع الطابع "العملي" الخاصّ بتحديد الأفهوم، الذي ذُكِر آنفًا، أن نتساءل عن الأدوات التنفيذية[٩] التي تسمح لأفهوم ما بأن "يعبِّر" عن نفسه. هذه الأدوات نوعان:

- الأوَّل تواصليّ كلامي، لأن التعبير الحرّ والشخصي عن الشيء هو أحد سبل التأكّد من استيعابه،
- والثاني عملي، لأن من شأنه أن يعطي المعرفة الذهنية امتدادًا في الواقع الحيّ.

في ما يلي أقترح جدولاً بـ "التعابير" و"الأفعال" الموازية للأفاهيم المعنية:

الأفهوم	البنى الكلامية أو التعابير المستعملة	البنى العملانية وأسسها المعرفية أو الأفعال الموازية
الأكل	مائدة، طعام، تحضير، تقدمة، أكل، شرب، مناولة، صينية، كأس، ملعقة، سكّين.	تحضير الطعام، المساعدة في تحضير الطعام، عملية الأكل بحدّ ذاتها.
الجسد	جسم، أعضاء، غناء، قراءة، ترتيل، سمع، نظر، لوحة، صورة، حواسّ، رسم، تكامل، وظائف.	تنمية الجسد، أعمال الجسد، المشاركة في حركية الاجتماع: تنقل، ترتيل، خدمة إلخ.
الشركة	عطاء، أخذ، تقاسم، اشتراك، مشاركة.	العطاءات في الكنيسة، الاهتمام بالفقراء، المشاركة في القرار، المعرفة التي تبنى عليها هذه الأفعال.

٩- على الصعيد المعرفي، تسمّى الأدوات "بنى عملانية" (schèmes) إذا كانت ذات طابع إجرائي أو "بنى لغوية" (formats) إذا كانت ذات طابع لغوي.

الجماعة	وحدة، مسؤولية، تعاضد، خدمة.	المسؤوليات الرعائية وربطها بالخدمة، الحياة التقديسية وربطها باجتماع الكل إلى واحد، الحسّ بالمسؤولية المشتركة والتعبير عنها.
العالم	العالم، المجتمع، المحيط، العادات، الشهادة.	اكتساب معرفة العالم، التدرب على قبول الآخر المختلف عنّا، اكتساب القدرات الإعلامية، اكتساب قدرات التواصل البنّاءة.

جدول رقم ٢

انطلاقاً ممّا سبق، يمكن تصوّر تدرّج البناء المعرفي العائد لـ "اجتماع الكلّ إلى واحد"، مع الأهداف الموازية الخاصّة، على الشكل التالي:

الهدف	**السنّ**	**الإطار المعرفي**
ربط الاجتماع الأسبوعي باجتماع العائلة وتوضيح دور الكاهن كالساهر على الرباط الذي يجمع بين الأفراد.	قبل الخامسة	العائلة التي تجتمع وتتوحّد حول مائدة الطعام. الكاهن في دور الأب الذي يرأس المائدة.
التأكيد على صورة العائلة. ربط الاجتماع الأسبوعي الموَحِّد بصورة الجسد الذي يقوم بأعمال متنوّعة بسبب من تناغم أعضائه وتكاملها. ممارسة بعض النشاطات في الخدمة.	بين الخامسة والسابعة	العائلة كصورة لجماعة متكاملة، فيها أدوار مختلفة كما في جسم الإنسان، الكاهن–الأب يمثّل في الاجتماع دور الموجِّه والمتابع. التعرّف إلى بعض أوجه الحياة الكنسية من خلال: الترتيل، القراءة، خدمة الكاهن، رسم الأيقونات، تزيين الكنيسة.

توضيح صورة الاجتماع الأسبوعي كمنبع حياة لأنه مصدر الغذاء، ولو كان هذا الغذاء من نوع آخر. التعامل مع النصوص ومع الحركة في الاجتماع على هذا الأساس.	بين السابعة والتاسعة	الأكل خدمة ذات طابع توحيدي يتطلّب تحضيرًا ومتابعة كما يرتِّب مسؤولية مرتبطة بنموّ الجسد ككلّ. اجتماع الكلّ إلى واحد يشبه هذا الأمر من حيث: التحضير (التقدمة خاصة أثناء الخدمة)، الصلوات (بعض النصوص، خاصة الطلبة السلامية الكبرى)، مساعدة الفقراء بواسطة العطاءات (الجسد الواحد يتعدّى المنظور).
التأكيد على صورة الجسد مع إبراز دور كل شخص بسبب أكله للخبزة الواحدة ووجوده مع الآخرين حول الحمل. الاطّلاع على نصوص التقدمة والمشاركة فيها أثناء التسبيح الشاروبيمي.	بين التاسعة والحادية عشرة	الجسد يعبرّ عن نفسه بعلاقات مختلفة وبنشاطات مختلفة. "اجتماع الكل إلى واحد" هو الذي يجعل هذه الوحدة حقيقية بسبب الأكل من الخبزة الواحدة وبسبب التحلّق حول الربّ المتمثل بالقرابين.
اكتساب حركية في الاجتماع وخارجه تُدخِل المراهق في حسّ الجماعة وفي كون الجماعة خادمة عمليًّا للمحتاج من أيّ نوع كان.	المراهقة الأولى	علاقات الإنسان تتعدّى شخصه وتضعه في إزائية مع الآخرين. الرابط الأساسي هو المحبّة التي يعبَّر عنها بكلّ ما هو مشترك. "اجتماع الكلّ إلى واحد" يلعب هذا الدور من خلال المثلث: الوحدة في الاجتماع، العطاء في الاجتماع، مدّ الاجتماع إلى الحضور في العالم.

		يتمّ ذلك من خلال دراسة هيكلية الخدمة والتوقف عند بعض نصوصها وربطها بنصوص من الكتاب المقدس خصوصًا في أعمال الرسل.
صورة يسوع المسيح كالمعطي الأمثل ولذلك هو هدف الاجتماع الأسبوعي.	المراهقة الثانية	تتجلّى محبّة الإنسان للآخرين بعملية العطاء. لذلك فالحمل المذبوح هو الصورة التي يتمّ الاجتماع حولها. الكنيسة، مثل التقدمة متحلّقة حول الرب: كلّ الخدم تنبع منها وتصبّ فيها: مقارنة هيكلية الخِدَم والتوقّف عند مبدأ الغذاء الواحد الذي يعطى في الاجتماع. التوقّف عند نصوص أساسية خصوصًا نصّ الكلام الجوهري، وبُعده العقائدي.
التعامل مع الاجتماع الأسبوعي كمصدر لكل ما له علاقة بحياة الفرد بتعاطيه مع الشأن الكنسي.	المراهقة الثالثة	الانضباط بالجماعة هو من خصوصية الإنسان كحيوان اجتماعي. لذلك فالمنتمي إلى الجسد الواحد يعيش كلّ حياته من خلال "اجتماع الكلّ إلى واحد". مركز التعليم في الخدمة. ضرورة ربط "اجتماع الكلّ إلى واحد" بسائر الخدم التقديسية.
التعامل مع الاجتماع الأسبوعي كمصدر ومصبّ لكلّ ما يربط الإنسان بالعالم.	كلّ ما يلي	الكنيسة، جسد المسيح، شاهدة لربّها في العالم. اجتماع الكلّ إلى واحد هو مسعى لجعل العالم مجال تأمّل في هذا الاجتماع ومجال خدمة بُعده.

		التوقّف خصوصًا عند الافشين الأخير، وعند تعليم شميمان حول "الليترجيا بعد الليترجيا". تدريجيًّا يمكن إدخال بعض الأمور اللاهوتية المتعلّقة بالشؤون العقائدية المرتبطة مباشرة بالموضوع.

جدول رقم ٣

تطوّر المعارف المرجُوّة

انطلاقًا ممّا سبق، يجدر بنا أن نقترح جدولة المعارف التي نتمنّى أن تكون مكتسبة ذهنيًا وفاعلة ميدانيًا. لكن كل ما يعود إلى "اجتماع الكلّ إلى واحد" مرتبط بالشأن الكنسي ككلّ، نظرًا إلى مركزيّة هذه الخدمة. لذلك فالدخول في أيّ تفصيل أبعد ممّا ورد في الجدول أعلاه، يتطلّب تفصيلاً ليس لموضوعنا المباشر بل أيضًا لمجمل المواضيع التي تهمّ هذه التنشئة، حتى تتكامل بالذهنية نفسها. وأخصّ بالذكر هنا (دون الحصر طبعًا):

١ – ألكتاب المقدّس

متى نبدأ بالتعرّف على الكتاب المقدّس؟ كيف نقيم العلاقة الخاصّة بين المؤمن والكتاب المقدّس؟ كيف نربط الكتاب المقدّس بحياة الجماعة (خصوصًا الملتفّة حول السيّد في "اجتماع الكلّ إلى واحد")؟

٢ – حياة الكنيسة

متى نبدأ بالتعرّف إلى الكنيسة كوحدة جامعة، عالمية الأرجاء، رغم كونها

مضبوطة بالكمال والتمام في الرعية؟ ما هو سبيل خلق العلاقة بين المؤمن في الرعية وتجلّيات الكنيسة الجامعة؟ ما هو دور الرموز الكنسية (من حوادث وأشخاص ومحطّات كالمجامع) في خلق هذا الجوّ من الإلفة؟

٣ – ألعقيدة

متى يبدأ المؤمن بالتعرّف إلى العقيدة كجزء من حياته وليس كتركيبة فكرية (التعليم حول الإنسان مثلاً)؟ كيف نربط العقيدة بشهادة الكنيسة في داخلها وفي العالم (فكرة القداسة مثلاً)؟ كيف تتكامل العقيدة مع حياة الكنيسة بالارتكاز على الكتاب المقدّس (التبشير مثلاً)؟

لا بدّ من الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها في جداول متوازية (شبيهة بما أوردت سابقًا) يضعها أخصائيون ويعملون على دمجها في منهاج تنشئة متكامل.

مَثَل عمليّ مناسب

أخيرًا، سأعطي مثلاً يوضح كيف تتكامل هذه المستويات كلّها إجرائيًّا. ففي ما يلي، سأعرض لكيفية تنفيذ قسم معيّن من هذا الطرح، وفي سنّ معينة[١٠].

من الهامّ هنا أن أذكر أن اعتماد المنهجية التي سأعطيها مثالاً في ما يلي، يفترض بناء المعلومات واكتساب الأفاهيم تدريجيًّا. لذلك هي تستبعد كلّ ما من شأنه أن يأخذ طابعًا تلقينيًّا فوقيًّا ينتهي به الأمر إلى الحفظ وإلى التنفيذ الآلي.

لنأخذ مثلاً طفلاً في السابعة من عمره:

١٠– من ناحية تقنيّة، أسمّي مثلاً كهذا "وضعية تواصل تعلّمية" لأن من شأنها أن تربط المعلّم بالمتعلّم بطريقة جديدة قائمة على التواصل، وتأسيس المعلومة في المعيوش، والتعامل الحيّ مع المعطى الجديد الذي يُكْتَشف في حينه.

١ – يأتي إلى الكنيسة مع عائلته، ومخزونه اللغوي لا يتعدّى عمليًّا الكلام البسيط من حيث التعابير ومن حيث التراكيب، وهو على العموم لا يُتْقِن الفصحى.

٢ – أمّا من حيث الخبرة الحياتية، فهي لا تتعدّى معرفته بنفسه وببيته وبمدرسته وصفّه وحيّه (أو قريته) علمًا بأن هذه الخبرة مقتصرة على علاقات بيتية، وعلاقات إدارية (في المدرسة)، وعلاقات معرفة متبادلة مع الرفقة. إذًا فمن الأفاهيم الأساسية لم يدخل بعد في خبرته إلاّ: الأكل، جسده وبعض مظاهر الشركة. أمّا الجماعة والعالم فلم يدخلا بعد في خبرته. لذلك فهذه "الأفاهيم بالممارسة" الثلاثة هي التي يمكن أن نستفيد منها لننطلق إلى معلومات أوسع ووسائل تطبيق أفضل.

٣ – قدراته التحليلية هي في أوّلها.

عند نهاية ما اعتبرته "مرحلة" معرفية، أي عند بلوغه التاسعة، يكون المتعلّم:

١ – قد تمكّن من لغته، وأصبح أكثر قدرة على فهم نصٍّ نحوي إنْ سمعًا أو قراءة.

٢ – قد تمكّن من معرفة أبعاد الأكل الصحيّة، وعلاقة ذلك بجسده، وأخذ جسده بُعدًا أكثر تجريدًا. في الوقت عينه، وبسبب خبرته الاجتماعية، تكون قد تأكدّت عنده خبرة الشراكة (بسبب اللعب المشترك مثلاً) وبدأ يكسب بعض الخبرة في ما يعود إلى أفهوم الجماعة.

٣ – قد تمكنّت بعض قدراته التحليلية وأصبح قادرًا على بعض التجريدات.

يأتي هنا دور المربّي، لخلق الوضعيات التي تسمح للطفل، مع انتقاله من مرحلة الانطلاق إلى المرحلة الهدف، بأن يكتسب المعارف المذكورة في الجدول رقم ٣ مع ما يناسبه من أمور معرفية ذات طابع إجرائي. في ما يلي رسم يوضح هذه الآلية:

رسم رقم ٢

وضعيات التواصل التعلّمية هي التي تسمح بالإنتقال تدريجيًا من مكتسبات الانطلاق إلى المكتسبات – الهدف. حيث المعلومات، مستفيدة من التطوّر الطبيعي لقدرات المتعلّم (أي الأفاهيم بالممارسة والبنى الكلامية) ومن تطوير خبرته في الجماعة الكنسية.

تتدرّج هذه الوضعيات من الانطلاق إلى الهدف على مدى سنتين، مركّزة على متابعة النموّ المتوازي والمتوازن للمتعلّم. في تصوّري أنه في منهاج للتنشئة في المسيح موزّع على سنتين، يمكن أن يتكامل هذا الترتيب مع مداخل أخرى (كما سبق وذكرت) وأن يقسّم على عشر حلقات.

يمكن أن تكون الحلقة الأولى، على سبيل المثال لا الحصر، حضور خدمة تأخذ طابعًا تعليميًّا يلفت النظر فيها إلى تكامل الأدوار. ثم يأتي تحليل هذه المشاركة على مرحلتين:

١ – مرحلة أولى تقيم التوازي بين الخدمة وعملية الطعام في البيت (من تحضيره إلى الاجتماع للأكل)،

٢ – مرحلة ثانية تقيم التوازي بين الجسد وأعضائه والأدوار المختلفة التي يقوم بها المشاركون في الخدمة جميعًا.

أمّا الحلقة الأخيرة فيمكن أن تكون زيارة رعائية لمريض من الرعية بإمامة الكاهن، زيارة تلي الخدمة مباشرة. ثم يأتي تحليل ذلك على مرحلتين:

١ – مرحلة أولى تقوم على دراسة نصٍّ كتابيّ بسيط، يربط "اجتماع الكل إلى واحد" بخدمتنا بعضنا لبعض، مؤكِّدة على فكرة الجماعة،

٢ – مرحلة ثانية تقوم على دراسة فكرة العطاء، وأهميّتها في الخدمة حتى لو أنها غابت عمليًّا عن الظهور واتّخذت شكلاً آليًّا (لمّ الصينية).

أمّا كل ما بين هاتين الحلقتين فيأتي متدرّجًا ومبنيًّا على خصوصية الرعية والبيئة وطاقات الأطفال. من هنا أهمّية تأهيل من سيتعاطون هذا الأمر تأهيلاً عاليًا فيرسّخون عملهم في الرعية بتعاون وثيق مع العائلة، مبتعدين عن كلّ ما من شأنه إضفاء صيغة صفّية على التنشئة في المسيح.

في النهاية، لا بد من الإشارة إلى أنّ عملية التنشئة في المسيح هي عملية متكاملة، لذلك فلا يصل هذا العمل فعلاً إلى مبتغاه إلاّ متى ظهر هذا التكامل بشكل "مناهج" مرتبطة ارتباطًا وثيقًا لاهوتيًا وتربويًا. وما النموذج الذي سبق، على صعوبة ما جاء فيه، وربّما غرابته، إلاّ سعيٌ متواضعٌ لطرح المسألة على ضمير المعنيّين، علّنا نتجنّد جميعًا لإدخال التغييرات التي نراها مناسبة إلى عملنا التربوي.

الخاتمة

ألكنيسة في العالم

كما اتّضح للقارئ، فحياة الكنيسة في هذا العالم هي محور فصول هذا الكتاب، ومحطّ تساؤلات الكاتب انطلاقًا من معاناة صادقة عنده، تلمّسها أيضًا عند العديد من المؤمنين في بحثهم حول الشأن الكنسي عمومًا ومستلزمات عيشه بنوع أخصّ. ليس الكاتب بسذاجةِ من لا يعترف بصعوبة عيش الحياة المسيحية في العالم، لكنّه، وفي الوقت بنفسه، ليس ممّن اعتبروا المسيحية تركيبة فوقية لا تَعْني الحياة اليومية فتُسائلها وتسأل نفسَها عنها.

صعوبة عيش المسيحية التي تواجهها الكنيسة كجماعة وكأفراد، لا تعفي الكنيسة، كما لا تعفي المؤمنين، من الجهاد في سبيل الشهادة "للرّجاء الذي فيهم". الكنيسة في العالم، كما أعضاؤها، مدعوّة لتجلّيات من جرّاء تواضعها وانسحاقها في الخدمة وطاعتها لسيّدها: فالفرق، كل الفرق، هو بين من يتوب عن خطأ ارتكبه وبين من يعتبر الخطأ طبيعيًا أمام صعوبة العيش بمقتضى الإيمان.

لذلك فالأسئلة التي توالت طيلة فصول سبع، تسائل الكنيسة وأعضاءها عن "راحة ضمير" أتتهم من الارتياح للشكل على حساب الجوهر، وذلك في كل الميادين، الطقوسية والتقديسية والتدبيرية. وهذا ما سمّيتُه في كل فصل "مأسسة". باعتماد الكنيسة، هنا وثمّة، أشكالاً موروثة من العالم دون نقد، وبرضوخ المؤمنين للعادات

المحيطة بهم دون فحصها، نكون قد نَحَّيْنا المسيحية عن الدور الذي من أجله قال السيّد "إنه في وسطها فلن تتزعزع". فالله لا يسكن الجماعة إلاّ متى كانت الجماعة أمينة لما من أجله وُجِدت. فالله "قادر على أن يصنع من الحجارة أبناءً لإبراهيم". ومتى فقدت الجماعة سبب وجودها، هجرها الله وتجلّى بواسطة كل من نذر نفسه له.

الكنيسة في العالم شاهدة لله، والله لا يقبل منّا شهادة زور تُشَوِّه دورَهُ في العالم وصورتَهُ المتجسِّدة.

ألمسؤولية عن الكنيسة وفيها

رُبَّ سائل هنا عن سبب هذا الطرح، وبهذه الشمولية بالذات. جوابي عن هذا السؤال بشقّين:

أوّلاً، إنني أقيم فرقًا كبيرًا بين المسؤولية في الكنيسة والمسؤولية عن الكنيسة. فالمسؤولية في الكنيسة مربوطة بالخدمة التي يؤدّيها المؤمن في الجماعة. لذلك، فالمسؤوليات مختلفة وتتّسع رقعتها مع نوع الخدمة التي تعود لها. فليس من تمييز نوعيّ بين الخِدَم لأنها جميعها تعود إلى مواهب خصّ بها الروحُ المؤمنين، فهي تتكامل وتتناغم. أمّا المسؤوليات فتختلف بسبب اختلاف نوعية الخدمة، وهذا طبيعي، وعلى الجماعة أن تحترم هذه التراتبية في المسؤولية في الكنيسة حتى تأتي أمورها بلياقة وترتيب.

لكن المسؤولية عن الكنيسة هي شأن كل مؤمن. "غيرة بيتك أكلتني" يقول النبي. ومِن المفترض أن تأكل الغيرةُ على الله وكنيسته كلَّ فرد من أفراد الجماعة. ألم يقل الرسول بطرس إنّه فينا نحن تَحقَّق حلم نبي العهد القديم "ليت كل أمّة الله أنبياء"، فكنّا نحن الأمّةَ المقدَّسة، الكهنوتَ الملوكي؟ لذلك من المفترض أن تدفعنا هذه الغيرة لنتحمّل المسؤولية التي أُلْقِيَت على عاتقنا في جرن المعمودية متى لَبِس كلٌّ منا المسيح. لا يستطيع أحد أن يقلِّل من مسؤولية كل فرد منا عن الكنيسة جمعاء. استقالتنا عن

حمل هذه المسؤولية هي رضوخ لواقع مرفوض ورثناه من اللاهوت الغربي القائل بكنيسة مُعَلِّمة وكنيسة مُتَعَلِّمة. أمّا في تقليدنا الشرقي، فنحن نحيا تداخلاً "أسراريًّا" حول الكأس المقدسة تجعل كلاًّ منا **مسؤولاً عن الكنيسة**، بتواضع المحبّ المُحْتَكِم في كل شيء إلى الروح العامل بواسطة الإخوة المصلّين. لذلك، أجرؤ وأطرح هذه الأمور على ضمير المؤمنين مهما اختلفت مسؤولياتهم **في الكنيسة**، حتى تأتي مسؤوليتنا **عن الكنيسة** بحجم رسالة الكنيسة في العالم.

ثانيًا، أطرح هذه الأمور بكلّ أبعادها، لأننا بحاجة ماسّة لنكسر طَوْق المأسسة من كل جوانبه حتى لا يعود ويُطْبِق علينا من حيث لا ندري. في اعتقادي أن المأسسةَ ذهنيةٌ دنيويةٌ (دهرية secular) تدخل في الأمور التَّقَوية فتفرغها من بُعدها التقديسي، وفي الأمور الإيمانية فتجعل منها إيديولوجيا ليس إلاّ، وفي الأمور المالية فتجعلها تجارية. لذلك علينا رفع التحدّي الذي يأتي من هذه الذهنية والتصدّي له من أيّة جهة أتى. فإن تركنا للمأسسة منفذًا في أيّ وجه من وجوه الحياة الكنسية، عادت وامتدت إلى أماكن أخرى من حياتنا الكنسية. لذلك فالمسألة على مستوًى كبير من الخطورة، ولا بدّ من أن تواجَه بما يقتضيه الأمر من جدّية وقوّة وحزم.

هل هذا يعني أننا سنصل يومًا إلى كمال في حياتنا الكنسية لا نعرف فيه المأسسة؟ هذا سؤال يأتي دومًا ليواجه المؤمنين في تصدّيهم لضعفاتهم وضعفات كنيستهم. هذا سؤال يخفي عمليًّا رغبة في إبقاء الأحوال على ما هي عليه بشيء من الانهزامية. لا، لن نصل إلى الكمال إلاّ إذا أراد الله لنا ذلك. لكن، حياة التوبة التي تُبْنى عليها حياتنا في المسيح ونموّنا فيه، هي في هذا العمل الدؤوب القائم على فحص الذات لتأتي أعمالنا دومًا شاهدة لصدق أبينا الذي في السماوات.

أسئلة وأجوبة

لذلك، ليس الموضوع موضوعَ حقّ بل موضوعُ واجب. من واجب كل مؤمن

أن يسأل ويتابع ويحاسب، بمحبّة وتواضع، كل ما له علاقة بالكنيسة وشهادتها، لأنه مسؤول عنها أمام الله لا أمام العالم. الشراكة في المسؤولية عن الكنيسة ترجمة للشراكة في الكأس الواحدة.

لكل الأسئلة الواردة في الفصول السبعة أجوبة مُسْنَدَة إلى الرؤية المستقيمة الرأي، مع ما تتضمنّه هذه الكلمة من فحوى. استقامة الرأي مُناخ وواقع. المُناخ هو في جوّ الحريّة التي تكلّم عليها الرسول بولس فسمّاها "حريّة أبناء الله". أمّا الواقع فهو بضرورة ترجمة المُناخ حياةً على صعيد الجماعة كما على صعيد الأفراد. إن لم يكن الأمر كذلك، فاستقامة الرأي فولكلور بيزنطيّ ليس إلاّ.

يتصوّر البعض– والكتابات اللاهوتية تساعد على ذلك– أن الولوج إلى الكلام بشؤون الكنيسة يتطلّب الكثير الكثير من المعرفة المعمّقة بشؤون اللاهوت والتاريخ الكنسي والعقيدة إلخ... الحقيقة أن هذا وَهْم خلقه الغرب لنا، ونحن بحاجة إلى إعادة النظر فيه بشكل جذريّ. أنا لا أقصد هنا أنه يمكننا الاستغناء عن المعرفة. بل، على العكس، أقول إن هذه المعرفة ضرورية لنستطيع الدفاع عن إيماننا. لكنني أشكّ بضرورة التعقيد القائم حول المعرفة هذه، وأُسائِل هذا التعقيد من جهة استقامة الرأي بالذات.

ليس ضروريًّا أن يكون لك العلم بالتفاصيل. لكن لا بدّ لك أيّها المؤمن من معرفة المرجعيات التي على أساسها تناقِش كلَّ أمر من أمور الحياة الكنسية. هذه المرجعيات ليست كثيرة، بعكس ما يعتقد البعض.

١ – المحبّة أساس كل عقيدة وكل نظام وكل تدبير. فلأن الله محبّة، لا يمكننا أن نتصور الكنيسة الشاهدة له تتحرك إلاّ من ضمن ما تمليه هذه المحبة على الكنيسة. كل شكل لا يساعد على عيش المحبة مأسسةٌ قاتلة. إعطاء صفة الإطلاق لايّ عادة أو طقس أو تدبير لا تتماشى والمحبة مأسسةٌ قاتلة. كل تَلَكُّؤ عن ترجمة الإيمان في علاقات محبّة مأسسةٌ مميتة للإيمان نفسه.

٢ – الكتاب المقدّس هو النصّ الذي عليه يتأسّس كل فكر مستقيم الرأي. ونحن

في الكنيسة نقرأ الكتاب المقدس انطلاقًا من العهد الجديد الذي هو عهد المحبّة المدموغ بدم الكلمة المتجسِّد. لذلك فَفَهْمُنا للكتاب المقدَّس مرتبط بهذا الإعلان الإلهي الذي اكتمل بالصليب والقيامة، والذي كان وراء القصد الإلهي الذي انسكب في العهد القديم، وأيضًا في كل ما ورثته الشعوب في العالم. ألا نرنّم في السبت العظيم: "قم يا الله واحكم في الأرض، لأنك ترث جميع الأمم!". من هنا أنّ معاشرة الكتاب المقدَّس والتأكيد عليه والتعليم عنه بشكل "نقدي" (حتى يستقيم القصد)، وليس فقط بشكل طوباوي أخلاقي، أمورٌ بغاية الأهمية حتى يشكّل الكتاب المقدس قاعدة فكرية مُوَحِّدة للشعب المؤمن.

٣ – أخيرًا، يشكّل دستور الإيمان، في بساطته، المرجعيةَ الثالثة والأخيرة في كل ما يتعلّق بالأسئلة التي يطرحها المؤمنون على أنفسهم. ودستور الإيمان، بما فيه من تعابير "تفوق العقل"، لأنها تتعلّق بالألوهة، لا يُدْرَك بالعقل إلاّ بمقدار ما يستنير هذا الأخير بخبرة حياة المحبة ويتغذّى من الكلام الإلهي المسكوب في الكتاب العزيز.

أسمح لنفسي بأن أجزم أنّنا، باحتكامنا إلى هذه المرجعيات الثلاث، يمكننا أن نجيب عن كل الأسئلة التي تطرحها علينا ظاهرة المأسسة. لا أنوي هنا أسترجاع كل الأسئلة المطروحة سابقًا، لكنني أتمنّى أن نفعل ذلك كجماعة مؤمنة، ساعين بتواضع وصدق للخروج من طغيان الجمود الذي يسيطر على حياتنا.

بين الاستقالة والتحدّي

أجل، فهذا المسعى ليس مسعىً شخصيًا. إنّه جهد جماعيّ. لذلك لا يهمّني أن أملك أنا الأجوبة أو ما أعتبره، عن حقّ أو غير حق، أنّه الأجوبة. لكن يهمّني أن أصل والإخوة إلى قناعات ومسالك وتدابير هي على مستوى مسؤوليتنا عن الكنيسة. وفي هذا المجال، نحن كلّنا، دون استثناء، "خاصّة الله"... لا تفرّق بيننا الخدم الكنسية والمواهب متى اجتمعنا حول الكأس المقدَّسة، "كلُّنا إلى الواحد".

كلّ مؤمن يحمل في ضميره، بوعيٍ أو بغير وعي، الإشكالية التالية: هل يستقيل أم يتحدّى!؟

الاستقالة هي استقالة من مسؤوليته عن الكنيسة، والتحدّي هو تحدٍّ لنفسه حتى لا يرزح تحت وطأة العادات المسمّاة تقليدًا.

الاستقالة هي استقالة من عضوية الجسد الإلهي للاكتفاء بالجسم السوسيولوجي الذي يدعى طائفة، والتحدّي هو تحدٍّ لضعفاتٍ نحمّلها باسم العصرنة.

الاستقالة هي استقالة من الإيمان بالإله المتجسّد، والتحدي هو تحدٍّ لأصنام نصبناها في الهيكل الإلهي، أصنام للمال وللسلطة ولآلهة أخرى من صنع أهوائنا.

في كلّ ما طرحْتُ على إخوتي، آثرت التحدّي ورفضت الاستقالة. هذا الكتاب نداء حتى لا نترك المأسسة تتأكّل أنطاكية ونحن لاهون عنها، بينما الكثير من المؤمنين يهجرون الكنائس (باستثناء الرتب الموسمية)، ويتساءلون عن إيمانهم غير قادرين على الدفاع عنه، ويحافظون على الشكل الطائفي غير آبهين بجوهر متطلّبات انتمائهم الكنسي.

في كلّ ما طرحت، آثرت أن أتحدّى الكثير وفي كلّ الميادين تقريبًا. بهذا الموقف أطلب من قارئي ألاّ يستقيل من تفتيشه عن ماهيّة الصلاة والصوم والطقوس وملاءمتها للأصالة الكنسية. فهي أشكال قابلة للتغيير طالما أننا نُدْرِك كيف يتمّ التغيير بالمحافظة على دورها في مساعدة المؤمنين لينموا في المسيح.

أطلب من قارئي ألاّ يستقيل من مساءلة التنظيم والإدارة وأنواع الخدمة عن فعّاليتها في الكنيسة. فهي أيضًا أشكال قابلة للتطوّر حتى تفي بغرض المحبة التي من أجلها وجدت.

أطلب من قارئي، أخيرًا، ألاّ يستقيل من محاسبة نفسه والجماعة على موضوع عبادة المال كإله بديل، ولو كان ذلك بشكل مقنَّع، هذا الصنم الذي شلَّ التواصل الكنسي بشكل لم يسبق له مثيل.

أكثير أن أطلب ذلك؟

ألرجاء في إيمان مبنيّ على المحبّة

لا! ليس هذا كثيرًا إذا بنيْنا فعلاً على الرجاء. "ما ليس مستطاعاً عند الناس مستطاع عند الله". من لَبِس المسيح لا يسأل عن الممكن، فعمل الله بواسطتنا لا يخضع لحسابات هي على قياسنا. ألله يحقّق بواسطة الضعفاء، وبحكمةٍ من عنده، ما لا يحقّقه الجبابرة. ألم يقل الرسول بولس: "اختار الله الضعفاء في العالم ليخزي الأقوياء، واختار الله الخسيس من العالم ليخزي الشرفاء...".

لذا، إن نحن بَنَيْنا على الرجاء تمكّنّا من الوصول إلى الهدف الذي نصبو إليه. ورجاؤنا ناتج عن إيمان راسخ بالله كما أعلن لنا نفسه بواسطة ابنه، وكما يستمرّ معنا بروحه القدّوس. الرجاء بالنسبة لغير المؤمن حلم. أمّا بالنسبة للمؤمن فالرجاء يقين، ولذلك يمكن أن نَبْني على الرجاء لكن لا يمكن أن نَبْني على الأحلام.

وإيماننا يقوم على محبّة الله كما عاشها الابن على الصليب، وكما مدّها لنا الروح بالإعلان الإلهي وبحياة القديسين. لذلك نحن نسعى، برجاء المؤمن المُحِبّ، إلى أن نستلهم الروح ونفتّش عن الأجوبة المناسبة للأسئلة الملحّة التي تواجهنا. بتواضعنا أمام الكشف الإلهي وبترفّع عن كل ما تمليه علينا أهواؤنا، لا بدّ وأن نصل إلى المبتغى.

"من يضع يده على المحراث لا ينظر إلى الوراء". نصيب من يتساءل عن أهميّة إنجازاته هو مصير امرأة لوط، التي تحولّت عامود ملح، لأن الله ينمي الزرع. عسانا، في هذا المسعى، نضع لأنفسنا هدف البشارة فنقول مع سمعان: "الآن تطلق عبدك أيها السيّد ...". لأنّنا لن نستحي بك أمام الناس فنحن أهل لكي نقول مع فيلبّس "تعال وانظر"، فالعروس بهية كالعريس.

ألفهرست

المقدّمة ٧

القسم الأوّل

الفصل الأوّل: أن نُصَلّي ١١

الفصل الثّاني: أن نَصوم ٢٣

الفصل الثّالث: أن نُعَيّد، ميلاد على رجاء المسرّة والسلام ٣٣

الفصل الرّابع: أن نَتَقدّس، ألزواج نموذجًا ٤١

الفصل الخامس: أن نَخْدم ٥٥

الفصل السّادس: أن لا نُشْرِك في الله ٦٩

الفصل السّابع: أن نُنْشِئ "في" المسيح ٨٥

القسم الثّاني

الفصل الثّامن: مَرجُوّات حول الرعاية في أنطاكية اليوم ١٠٧

الفصل التّاسع: اجتماع الكلّ إلى واحد ١١٧

الخاتمة ١٣٧

أنجزت مَطبعة لِيزار ش.م.م طباعة هذا الكتاب
في شهر أيار ٢٠٠١

تعاونية النور الأرثوذكسية للنشر والتوزيع
AN-NOUR COOP

قرش جنية
٢٠,٠٠